غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات

تأليف

علي بن ظافر الأزدي

تحقيق

سميرة نعيم خوري

رسالة قدمت لنيل درجة أستاذ في الآداب
إلى دائرة اللّغة العربيّة ـ الجامعة الأميركية في
بيروت
تشرين الأول، ١٩٦٨

T
123A
pt.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

A Critical edition of: "Ghara'ib al-Tanbihat ala Aja'ib al-Tashbihat" by Ali b. Zafer al-Azdi.

By

Miss Samira Naim Khoury
(Name of Student)

Approved:

Dr. Ihsan Abbas & Dr. M.Y.Najm _____
Advisor

Dr. Kamal Yazigi _____
Member of Committee

Dr. Mahmud Ghul _____
Member of Committee

Dr. Fuad Tarazi _____
Member of Committee

_____

Date of Thesis Presentation: **October 28,1968**.

فهرست المحتويات

فهرست المحتويات

صفحة

تمهيد أ ـ جـ

مقدمة ١ ـ ١٠٥

٠١ لمحة في التاريخ السياسي لعصر ابن ظافر ١ ـ ٧

٠٢ سيرة المؤلف ٨ ـ ٢٥

٠٣ أخلاقه وشخصيته ٢٦ ـ ٣٦

٠٤ ثقافته واتجاهاته الفنية ٣٧ ـ ٥٧

٠٥ مؤلفاته ٥٨ ـ ٦٧

٠٦ كتب التشبيهات قبل ابن ظافر ٦٨ ـ ٨٧

(أ) تشبيهات ابن أبي عون ٧٠ ـ ٧٨

(ب) كتاب التشبيهات من أشعار الأندلس ٧٨ ـ ٨٥
لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب

٠٧ كتاب ابن ظافر في التشبيهات ٨٨ ـ ١٠٥

ـ سبب تأليف الكتاب والنهج المتبع فيه ٨٨ ـ ٩٦

ـ قيمة الكتاب ومنزلته بين كتب التشبيهات ٩٦ ـ ١٠٠

ـ اشارة المصادر الى هذا الكتاب
والنسخة المعتمدة في التحقيق ١٠٠ ـ ١٠٣

ـ طريقة التحقيق ١٠٤ ـ ١٠٥

غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ١٠٦ ـ ٣٥٢

ـ مقدمة المؤلف ١٠٦ ـ ١١٦

صفحـــــــــة

٠١ الباب الأول في تشبيه الأجرام العلوية ١١٧ ـ ١٩٣
ـ الفصل الاول في ذكر التشبيه الواقع في الهلال ١١٧ ـ ١٢٨
ـ الفصل الثاني في تشبيهه مع الثريا وسائر النجوم ١٢٩ ـ ١٣٤
ـ الفصل الثالث في تشبيهه عند انتصافه وكماله وفي حالات مختلفة ١٣٥ ـ ١٤٣
ـ الفصل الرابع وصف ضوء القمر على الماء ١٤٤ ـ ١٥٠
ـ الفصل الخامس التشبيه المستحسن في ضوء الشمس والسرج ١٥١ ـ ١٥٧
ـ الفصل السادس فيما يتعلّق في تشبيه الثريا ١٥٨ ـ ١٦٩
ـ الفصل السابع فيما قيل في سائر النجوم من التشبيه ١٧٠ ـ ١٧٧
ـ الفصل الثامن في تشبيه قوس قزح والثلج والبرق والغيم ١٧٨ ـ ١٨٧
ـ الفصل التاسع في تشبيه المجرة ١٨٨ ـ ١٨٩
ـ الفصل العاشر في تشبيه الصبح ١٩٠ ـ ١٩٣
٠٢ الباب الثاني في التشبيه الواقع في صفات المياه والأنهار والغدران ١٩٤ ـ ٢١٣
ـ الفصل الاول فيما قيل في الانهار عند تجمدها بمرّ الريح عليها ١٩٤ ـ ٢٠٣
ـ الفصل الثاني في تشبيه الانهار الهادئة والعباب الساكنة ٢٠٤ ـ ٢٠٧

صفحـــــــــــة

ـ الفصل الثالث في ذكر التشبيه الواقع في تغيّر ماء الانهـــار بالمدود ٢٠٨ـ٢٠٩
ـ الفصل الرابع في تشبيه المراكب ٢١٠ـ٢١١
ـ الفصل الخامس في تشبيه الفوارات وما شابهها ٢١٢ـ٢١٣

٠٣ الباب الثالث في تشبيه الأزهار والأثمار والنبـــات ٢١٤ـ٣٠٠
ـ الفصل الأول في تشبيه الأزهار ٢١٤ـ٢٥٥
ـ الفصل الثاني في ذكر التشبيه الواقع في الأثمـــار ٢٥٦ـ٢٨٨
ـ الفصل الثالث في تشبيه ســائـــر النبات والانقـــال ٢٨٩ـ٣٠٠

٠٤ الباب الرابع في التشبيه الواقع في الخمريـات ٣٠١ـ٣١٨
ـ الفصل الأول في تشبيه الكأس بعد المـــزج ٣٠١ـ٣٠٧
ـ الفصل الثاني في تشبيه الســاقي ٣٠٨ـ٣١٠
ـ الفصل الثالث في تشبيه الابريق والكأس ٣١١ـ٣١٤
ـ الفصل الرابع في تشبيه الشراب الأسود ٣١٥ـ٣١٦
ـ الفصل الخامس في تشبيه ضوء الخمـــر ٣١٧ـ٣١٨

٠٥ الباب الخامس في التشبيه الواقع في الغزل ٣١٩ـ٣٢٠
ـ الفصل الأول في تشبيه الثغور والشفاه والشـــوارب ٣١٩ـ٣٢٠

صفحـــــــــة

٠٦ الباب السادس في تشبيهات مختلفة ٣٢١ـ٣٥١

ـ الفصول الثلاثة الأولى سقطت من الأصل

ـ الفصل الرابع سقط بعضه ، وبقي تشبيه رؤوس الغنم وأرفغة الخبز والملح والسماق والفقـــاع ٣٢١ـ٣٢٣

ـ الفصل الخامس في تشبيه الراى الطرى ٣٢٤ـ٣٢٧

ـ الفصل السادس فيما قيل من التشـبيه في انواع من المآكل ٣٢٨ـ٣٣١

ـ الفصل السابع في جملة من التشبيهات في أرباب صنائع مختلفة ٣٣٢ـ٣٣٥

ـ الفصل الثامن في تشبيه أنواع مـــن الحيوانات ٣٣٦ـ٣٤٢

ـ الفصل التاسع في تشبيهات مختارة من آلات الحـــرب ٣٤٣ـ٣٤٥

ـ الفصل العاشر في تشبيهات في أشياء مختلفـــة ٣٤٦ـ٣٥١

خاتمـــــــــة ٣٥١ـ٣٥٢

قائمـة المـــراجـــــع ٣٥٣ـ ٣٦٢

تمهيد

غير خاف ان الصورة عنصر أساسي من عناصر الشعر، أدرك ذلك النقد الأدبي منذ أرسطو الذي اعتبر الاستعارة سمة العبقرية. وقد تنبّه الشعر العربي لهذه الحقيقة منذ الجاهلية، فوصلتنا قصائد حافلة بالصور المبتكرة والأخيلة الخصبة. ولكنّ المعايير والمقاييس النقديّة لم تتركّز قبل العصر العباسي، وهو العصر الذي ازدهر فيه التأليف بأنواعه، ولم يكن حظ كتب المختارات الشعريّة والمصنّفات النقدية باليسير. وقد حاول المتأخرون صياغة قوالب واستنباط قواعد لقياس روعة الشعر وجودته. وكان التشبيه ـ وهو أسلوب من أساليب التصوير ـ أحد هذه المقاييس، فالشعر اما مثل سائر او استعارة غريبة او تشبيه نادر، "وما خرج من هذه الأقسام الثلاثة فكلام وسط أو دون، لا طائل فيه ولا فائدة معه"[1].

ونتيجة لتفاعل الشعر والنقد برز اتجاه اقتصر على الاهتمام بالتشبيه وعدّه أبعد غاية من غايات الشعر، يقصده الشعراء ويتعمدونه لذاته دون التفات لموضوع أو فكرة أو معنى عداه، وأصبحت "كأنّ"،

---

(١) تشبيهات ابن أبي عون، ٢.

وما جرى مجراها، محكّ الموهبة والأصالة ومقياس الابداع ·

وليس اعلاء شأن التشبيه في العملية الشعريّة بأمر غريب، ولكنّ العيب في هذا الاتجاه انما تأتى من ناحيتين: أولاهما أن الاهتمام بالتشبيه حجب ما عداه، والثانية أن المغالاة في هذا الاهتمام قد أبعدت الشعراء والنقاد عن المستوى الطبيعي الذى يجعل للصورة وجودا فنيا لا وجودا زمنيا مؤقتا · ومعنى هذا ان الخروج الى هذا الاغراب ومحاولة الابتداع قد جعلت الشعراء ــ ومن ورائهم النقاد ــ يعنون بأدوات الحضارة من حولهم، ويستمدّون منها صورهم، فلا تكتب لها الحياة الفنيّة الطويلة، لأن العلاقات بين طرفي التشبيه في تلك الصور كانت صناعيّة · وهذا ان لم يصدق على جميع تلك الصور فانه يشمل الأعم الأكثر فيها ·

وقد نتج عن هذا الاتجاه افراد محاسن التشبيهات ــ حسب ذوق العصور المختلفة ــ في كتب خاصّة بها · وكتاب "غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات" ــ موضوع هذا التحقيق ــ واحد من عدّة مصنفات قصد بها أصحابها اختيار روائع هذا الشعر والتنبيه اليها · ومهما يكن رأينا اليوم في قيمة القطع التي احتواها وحظّها من الأصالة والشاعريّة، فانها لعبت ــ دون ريب ــ دورا في تطوّر المفهوم الأدبي خلال العصور، وهي تمثّل مرحلة من مراحل ذلك التاريخ الأدبي الذى يعدّ مجالا لاطلاعنا ودراساتنا ·

ولم تكن غاية هذه الرسالة دراسة هذا الاتجاه الشعري والنقدي وتقويم أثره وتبيان الدور الذي لعبه، فهذا موضوع واسع يصلح لدراسة مستقلّة. ولكني قمت بتحقيق كتاب يعين على القيام بمثل هذه الدراسة وتكامل البحث فيها. ولا يخفى أن كل دراسة تبقى ناقصة حين تكون الأصول مفقودة، فهذا الكتاب أصل من الأصول التي يمكن أن تبنى عليها مثل هذه الدراسة.

ولقد قمت بتحقيق هذا الكتاب، وسعيت جهدي الى ضبط نصوصه بدقّة، وعرّفت بالأعلام والأماكن وشرحت المفردات التي رأيت شرحها ضروريا ـ متّبعة في كل ذلك خطوات التحقيق العلمي المتعارفة. وقد قدّمت للكتاب بمقدّمة موجزة تناولت عصر المؤلف وسيرته وثقافته واتجاهاته الفنية، وفيها تحدّثت عن المصنفات الأخرى التي خصّصت لجمع أبيات التشبيهات ـ كل ذلك ثقة مني بأن هذه أمور لا بدّ منها لضبط هذا الكتاب ووضعه في اطاره الصحيح في تاريخ الشعر والنقد. وذلك، بعد كلّ شيء، اسهام متواضع أرجو أن يحوز الرضى والقبول.

وبعد، فاني أختم كلمتي هذه بما كان يجب أن أبدأ به: شكري وامتناني لأستاذي الدكتور إحسان عبّاس الذي فسح لي مكانا في قلبه وبيته وعائلته، بعد أن جاد عليّ بعلمه ووقته وشرّع لي أبواب مكتبته. ولولا صبره وحزمه وأناته ودقّته لما أتيح لي أن أخط حرفا واحدا من هذه الرسالة. وشعوري نحوه لا يقدّره حق قدره الا من كان محظوظا بالتتلمذ عليه ـ وهو موقف أفخر به. ولعلّ أملي الوحيد بوفاء بعض ما له عليّ من دين هو في اتباع مثله العلميّة ومحاولة الاهتداء دوما بارشاداته.

* * *

مقدمة

مقدّمـــــة

١٠ لمحة في التاريخ السياسي لعصر ابن ظافر*

نشأ ابن ظافر وصلاح الدين قد أحرز انتصاراته الضخمة في حطين أولا، ثم في فتح القدس واسترداد أكثر البلاد المقدسة من أيدى الصليبيين. وحين حفز ابن ظافر طموحه للاتصال بالدولة الايوبيّة سنة ٥٨٧، كـــان صلاح الدين معسكرا على تلّ الحجل بمرج عكّـا يحاول حماية المدينـــة والحيلولة دون سقوطها في يد العدوّ؛ فكان يخرج لمقاتلتهم يوميا ليشغلهم عن مزاحفة البلد ويخفف أعباء القتال عن الحامية المستقرة فيها. وهذا العام الذى قدم فيه ابن ظافر الى الديار الشاميّة ــ أي عام ٥٨٧ ــ يشكّل علامة فارقة هامة في تاريخ الحروب الصليبية؛ ففيه وصلت الحملة الثالثة لنجـدة الفرنج الذين كانوا يحاصرون عكا. وقد قدّر لهذه الحملة أن تلعـب دورا

---

* ليست هذه اللمحة اليسيرة الا توطئة للحديث عن ابن ظافر وعلاقاتـــه العامة، ومن أراد مزيدا في دراسة التاريخ السياسي لهذه الفترة، فانـه يستطيع ان يرجع الى: الكامل في التاريخ لابن الاثير، سيرة السلطان يوسف لبهاء الدين بن شداد، مفرج الكروب لابن واصل، كتاب الروضتين لأبـــي شامة. ومن المراجع الحديثة: تاريخ العرب المطول لحتي، A History of the Crusades لـ Runciman وغير ذلك من مراجع.

بالغا في تغيير مجرى الأمور. وقد كانت بقيادة الملك فيليب وريتشارد قلب الأسد الذي "كان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا، وبلي المسلمون منه بالدّاهية التي لا مثل لها"[1]. وكان من جرّاء وصول هذه الحملة أن اشتدّ بأس العدوّ وفشل صلاح الدين في حماية عكا فسقطت في ايديهم في السابع عشر من جمادى الآخرة من السنة نفسها. وكان هذا أول انجاز حقّقه الملك ريتشارد، ثم توالت حملاته، فكانت هزيمة المسلمين في أرسوف، ومسير الفرنجة، بعد ذلك، الى يافا وملكهم اياها. وبهذا تحوّلت انتصارات صلاح الدين الى تراجع، وأصبح كل همه أن لا يسمح بتقدّم الصليبيين الى احتلال القدس بعد أن ضاع من يده أكثر المنطقة الساحلية فتوجه الى القدس ونظر في تحصينها فعمّر سورها وحفر الخنادق وأنشأ الأبراج اللازمة وغوّر آبار المياه في الطريق اليها. وقد حاول الفرنجة الاستيلاء عليها فلم يتمكنوا، ونزلوا عند رأي ريتشارد الذي قال لهم: "هذه مدينة لا يمكن حصرها ما دام صلاح الدين حيّا وكلمة المسلمين مجتمعة"[2].

وفي هذه السنة راسل ريتشارد صلاح الدين طالبا المهادنة وعقد الصلح. الا أن شروط الهدنة لم تستقر حتى العشرين من شعبان من

---

(١) ابن الأثير ١٢: ٦٥.
(٢) ابن الأثير ١٢: ٧٥.

السنة التالية ـ سنة ٥٨٨ ـ وقد تخلّى ريتشارد بموجبها عن غزة والدّاروم والرملة، كما رضي أن يعود صلاح الدين الى تخريب عسقلان مرة أخرى . وقد استمرت هذه الهدنة ثلاث سنين وثمانية أشهر .

رحل الفرنجة الى ديارهم ـ بعد زيارة بيت المقدس بإذن من صلاح الدين ـ وسار صلاح الدين الى دمشق، بعد أن مكث بالقدس شهر رمضان أحكم خلاله تحصيناتها، ومرّ بطريقه على الثغور الاسلاميّة كنابلس وطبرية وصفد، ثم دخل دمشق، وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا .

واستقرّت الأحوال حتى وفاة صلاح الدين في صفر من عام ٥٨٩ ، وبوفاته عادت البلاد التي توحّدت في ظلّه ، الى الانقسام مرّة أخرى . فلقد استقلّ كلّ ملك من أبنائه بالمنطقة التي كان فيها . فاستقرّ الملك الأفضل بدمشق وملك معها الساحل والبيت المقدّس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وجميع الأعمال الى الدّاروم، واستقل الملك العزيز بحكم مصر، واستولى الملك الظاهر على حلب وجميع أعمالها .

على أن هذا الانقسام لم يكن البلاء الوحيد الذي حلّ بالبلاد، بل ان هؤلاء الاخوة لم يكونوا على وفاق دائم، وكثيرا ما طمع الواحد منهم بملك الآخر وحاول الاستيلاء عليه . ومنذ سنة ٥٩٠ والأمر سجال بينهم،

تارة يسير الملك العزيز الى الديار الشامية ويحاصر دمشق محاولا استخلاصها من الأفضل، وتارة يسير الأفضل الى حدود أخيه المصريّة للاستيلاء على مملكته .

ولم يقف عمّهم الملك العادل مكتوف اليدين، بل لقد كان له دور كبير في هذه الخصومات، تارة ينتصر للأفضل على العزيز، وأخرى يتحالف والعزيز ضدّ الأفضل، حتى تمكن سنة ٥٩٢ من اقناع العزيز ـ وكان هذا قد استولى على دمشق ورحّل الأفضل عنها ـ بتمليكه دمشق واعطاء صرخد للأفضل . واستقرّت الأمور على هذا الشكل حتى وفاة الملك العزيز سنة ٥٩٥ . فقد استدعي الأفضل ليقوم بأتابكية ابن أخيه بمصر، فما أن استقرّ بها حتى اتفق مع أخيه الظاهر وابن عمه أسد الدين شيركوه، صاحب الموصل، على أن ينصراه ليستعيد دمشق من العادل . ولكن دهاء العادل مكّنه من اثارة الفرقة بين الاخوين، الأفضل والظاهر، ومن استمالة كبار امراء حاشية الأفضل اليه . ونتج عن ذلك الاخفاق في حصار دمشق وعودة كل ملك الى بلاده . غير أن العادل لم يكتف بهذا، بل انه لحق بابن أخيه وانتزع منه الديار المصرية سنة ٥٩٦ . ولقد قال ابن الأثير فيهما: "ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكة قط الا وأخذها منه عمّه العادل"[1] .

---

(١) ابن الاثير ١٢: ٣٥١ .

استقر الأمر بيد العادل اذن، فتولى مملكة أخيه صلاح الدين كلها، ولم يزعجه الأفضل والظاهر سوى مرّة واحدة في أول عهده. وقد قسم العادل مملكته هذه في حياته بين أبنائه ينوبون عنه في حكمها، واستقر هو في مصر، الى جانب ابنه الملك الكامل، ولم يكن يفارقها الا لماما. وسارت الامور كما أراد لها العادل حتى وفاته، سنة ٦١٥، فثبت كل ملك من أبنائه في المملكة التي عيّنها له أبوه، "واتفقوا اتفاقا حسنا فلم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كلّ منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه، فلا جرم زاد ملكهم، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم"[1].

هذا عن الأحوال الداخلية، أما الحملات الصليبية فانها لم تتوقف، وان كانت قد خفّت حدّتها في أيام العادل الذي عقد هدنة مع أمراء الدّول اللاتينيّة وكان على صداقة معهم يعرف كيف يأمن جانبهم، يؤهله لذلك خبرته بشؤون الفرنجة وتمرّسه بأحوال ملوكهم ودولهم عن طريق المفاوضات التي كان يوكلها اليه صلاح الدين. وقد انصرف العادل الى الاهتمام بالشؤون الداخلية للمملكة حتى قبيل وفاته حين بدأت الحملة الخامسة واستهدفت

---

(١) ابن الاثير ١٢، ٣٥٢.

دمياط. وقد كانت هذه الحملة من أكبر الحملات وأقواها، استمرت أربع سنين الا شهرا، واستطاع أولاد العادل ـ وكان الأشرف والمعظم في نجدة الكامل ـ في نهايتها الانتصار على الفرنجة واستعادة دمياط.

ولكنّ الخلف بدأ من بعد يدبّ بين أبناء العادل، فتحالف الكامل والأشرف ضد المعظم وأرادا اقتسام مملكته. وقام العديد من الحروب الأهلية الداخلية بين ملوك الدول المتفرّقة.

تلك هي الحقبة التاريخية التي نشأ فيها علي بن ظافر. ورغم محاولاته للاتصال بكبار عصره من رجال السياسة والحكم فانه كان من رجال الحياة السلميّة الهادئة، وليس في أي من مؤلفاته التي بين ايدينا اهتمام خاص بذكر الحروب الصليبية ولا أية تعليقات على العلاقات القائمة بين الصليبيين وسكان الشام ومصر، وحسبنا ان نذكر انه أثناء الحرب عند اسوار عكا، ذهب يحمل الى صلاح الدين كتابا في التشبيهات الشعرية. ومن الغريب أن يفتتح كتابه بفصول تتحدث عن جمال الطبيعة والجمال الانساني، مع أن أصوات البوقات والطبول وصليل السيوف وصهيل الخيول كان أحرى أن يوجه اهتمامه الى الحرب والى ما جرى فيها من تشبيهات. ولكنّ ابن ظافر كان يعيش في عصر فصل فيه المفكّرون والمثقفون فصلا كبيرا بين واجب المفكّر وواجب الجندي والتزم كلّ بتأدية دوره، الا أن يكون الواحد منهم يمثل

دور الأديب والسياسي في آن واحد كما فعل القاضي الفاضل وزير صلاح الدين .

فمن هو ابن ظافر ، وما هو هذا الكتاب الذي حمله معه الى مرج عكا ؟ ذلك ما سأتحدّث عنه في الفقرات التالية .

مؤلف الكتاب[١] هو علي بن ظافر بن حسين، كنيته أبو الحسن، ولقبه جمال الدين، مصري المولد، أزدي النسب أو خزرجيّه. كان والده، ظافر بن الحسين، المكنّى بأبي منصور، فقيها مالكيّ المذهب. ويبدو ان تضلعه في الفقه المالكي قد جعله مرجعا في الافادة والفتيا[٢] حتى عرف بالعلاّمة[٣]. وكان مدرّسا بمدرسة المالكيّة، وهي "أجلّ مدرسة للفقهاء المالكية"[٤]، ولعلّه كان من أوائل الشيوخ الذين عيّنهم صلاح الدين للتدريس فيها. وقد توفي سنة ٥٩٧، وهو العام الذي أصيبت فيه مصر بالجوع والموت المفرط، حتى كان الذين ذهبوا في ذلك الوبأ ممن شملهم الإحصاء في القاهرة وحدها "١١١،٠٠٠" نسمة في مدّة ٢٢ شهرا[٥].

---

(١) له ترجمة في فوات الوفيات ٢: ١٠٦، ومعجم الادباء ١٣: ٢٦٤.

(٢) انظر العبر للذهبي ٤: ٢٩٧، ونيل الابتهاج: ١١٣، وشذرات الذهب ٤: ٣٢٩.

(٣) الفوات ٢: ١٠٦.

(٤) او المدرسة القمحية وقد أنشأها صلاح الدين عام ٥٦٦ بجوار الجامع العتيق، ووقف عليها ضيعة الحنبوشية بالفيوم وكان الفقهاء يقتسمون فيما بينهم ما تغله هذه الضيعة من القمح فلذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية (انظر الخطط للمقريزي ٢: ٣٦٤).

(٥) العبر ٤: ٢٩٥.

ويقول ابن شاكر ان عليا ولد سنة ٥٦٧، أي انه كان، حين توفي والده، قد تجاوز الثلاثين من عمره . وقد انتفع بصحبة والده وتنشئته، اذ كان ظافر يرشّح ابنه لمثل اتجاهه الفقهي، فدرّسه الفقه والأصول في سن مبكّرة (١). ولكن ميول علي كانت تذهب في وجهة أخرى، فقد شغف بالأدب والتاريخ، وأحرز في صغره فيهما ثقافة واسعة سنتعرّض للحديث عنها في الفصل الخاص بثقافته .

وعن طريق استشرافه للتاريخ والأدب كان يؤمّل الظهور والشهرة في دور مبكّر، ولهذا نجده في صباه يحوّم حول مجلس شيخ الأدباء في ذلك العصر، أعني القاضي الفاضل . ولعلّ من أشدّ ما يصوّر تعلّقه بالأدب أنه حاول أن يتقرّب الى قلب القاضي الفاضل بكتاب طريف في موضوعه، لعلّه لم يحتذ فيه على مثال، وذلك هو كتابه "بدائع البدائه" الذي قدّم أول صورة منه للقاضي الفاضل قبل ٥٨٧، أي وهو دون العشرين من عمره . فلما رأى الفاضل ما اجتمع له في ذلك الكتاب حثّه على المضي في الجمع حتى اذا استوفى القدر الذي أتيح له منه قدّمه له، "فلما رأى ما اجتمع منه سرّ به واغتبط وأكرم نزله فارتبط، وشرّفني على صغر سني ونضارة غصني بأن أنتسفه لخزانته وحباه بحفظه وصيانته" (٢).

---

(١) الفوات ٢: ١٠٧ .
(٢) البدائع ١: ٣ .

وكانت هذه المقدّمة فاتحة طموح عريض في حياته ، اذ كان وصول شاب مثله الى حلقة القاضي الفاضل التي كانت محتشدة بكبار الأدباء والعلماء أمرا باعثا على الطموح حقا . ولهذا نراه يعود الى اتخاذ الأدب تميمة لفتح مغاليق السياسة، فيفارق وطنه ذاهبا الى الديار الشامية، ولعله ارتحل اليها في ركاب القاضي الفاضل نفسه في أوائل سنة ٥٨٧ . وكان الملك الناصر صلاح الدين في هذا العام يعدّ العدّة للاستيلاء على عكا، وقد ضرب معسكره في المناطق القريبة منها . ووصل ابن ظافر الى معسكر السلطان طالبا الحظوة والمال معا في الخامس من جمادى الآخرة من ذلك العام حين كان المعسكر مضروبا على تل الحجل بمرج عكا .(١) ولعلّه كان يعلم ان السلطان ، في ذلك الوقت العصيب ، مشغول بخططه ومشروعاته الحربيّة، ولذلك توجّه الى الملك الأفضل بن صلاح الدين الذي كان يخدم في جيش والده وقد جعله أميرا على اليزك(٢) ، فدخل في خدمته "وتميّز بانتسابه الى المقام العظيم"(٣) ووجد لزاما عليه أن يخدمه بكتاب " ما أظن قريحة أتت بمثاله فيما سلف من الزمن، ولا أظن أن أحدا يجمع مثله فيما بعد "(٤) . أما هذا الكتاب فهو الكتاب الذي قمت بتحقيقه أعني "غرائب التنبيهات على عجائب

---

(١) التشبيهات : الورقة ٢ ب .
(٢) ابن الاثير ١٢ : ٦٩ . واليزك كلمة تركية الاصل تعني مقدّمة الجيش .
(٣) التشبيهات : الورقة ٦ أ .
(٤) التشبيهات : الورقة ٢ ب .

التشبيهات" . وقد أحس ابن ظافر بالمفارقة الشديدة بين اهتمامه وبين ما تفرضه الظروف العصيبة حينئذ ، ولهذا ذكر في مقدمة كتابه أنه "اختصره غاية الاختصار لمعرفته باشتغال المجلس الأسمى بتدبير الكتائب وتجهيز العساكر والمقانب وحسن القيام بايالة الخلائق وتعلقه من أمر الحروب بأشد العلائق"[١] .

ومن المفارقة اللافتة للنظر ان الكتاب قدّم في التاريخ المذكور ، وان عكا سقطت بأيدي الفرنجة في السابع عشر من الشهر نفسه[٢] . وربما لم يكن لدى الأفضل من الوقت ما يسمح له حتّى بتصفّح الكتاب .

ولا ندري، على وجه التحديد ، المدّة التي قضاها ابن ظافر في خدمة الملك الأفضل ، ولكننا نرجّح أنه لم يستمر في حاشيته فترة طويلة . ولو جاز لنا أن نقدّر هذه الفترة، انطلاقا مما نستشفّه من أخلاقه وشخصيته وقياسا على تصرفاته المقبلة للانفصال من خدمة الملك الاشرف، لوجدنا انه لم يمكث عنده الى أبعد من سنة ٥٨٩ . وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين فآل الملك الى الملك الأفضل الذي استوزر ضياء الدين ابن الأثير وفوّض اليه تصريف أمور مملكته ، فكان ما كان من اضطراب أحوالها بسبب رعونة هذا الوزير وانصياع الأفضل لمشورته ، مما أدى الى تخلّي

(١) التشبيهات ، الورقة ٦ ب .
(٢) ابن الاثير ١٢ : ٦٦ .

أصحاب صلاح الدين وأمرائه ومماليكه عن الأفضل وارتحالهم الى القاهرة ـ ومن جملتهم القاضي الفاضل والأمير فخر الدين جهاركس وفارس الدين ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير والعماد الكاتب ـ مما أضعف جانب الأفضل وأدى الى زوال ملكه (١). ولم يكن هذا الوضع ملائما لتحقيق آمال ابن ظافر وطموحه ، اذ كان أدبه يصلح للمسامرات في أيام السلم والاستقرار ، لا في ظروف مضطربة، فعاد أدراجه من رحلته الشامية هذه دون أن ينال كبير فائدة .

عاد ابن ظافر الى القاهرة يجدّد فيها من عهوده ما انقطع ، ولعلّه لم يقم بنشاط علمي بارز في هذه الفترة، بل انصرف الى القراءة والاطلاع وتحصيل العلم . أما في سائر أوقاته فكان يمارس نوعا من حياة اللّهو الأدبي يسعفه عليها شبابه ولمّة من الأصحاب الذين كانوا يبدّدون الوقت في التفرج بمتنزهات القاهرة وشغلهم الشاغل التمرس بالنظم في كل مناسبة تعرض لهم . وفي مقدّمة هؤلاء الأصدقاء القاضي الأعز بن المؤيد وأبو الحسن ابن النّبيه وشهاب الدين يعقوب ابن أخت الوزير نجم الدين ابن المجاور وزير الملك العزيز وابن الذروي وابن سناء الملك وغيرهم من أدباء مصر .

---

(١) ابن واصل ٣: ١٠ـ١١ .

فكانوا أحيانا يذهبون الى دير القصير[١] للنزهة والمباراة في قول الشعر "جريا على عادة خلعاء البلغاء وظرفاء الأدباء ومجّان الشعراء"[٢]. وأحيانا كثيرة يجتمعون بالقرافة[٣] أو بالجامع الأنور أو يخرجون الى الرّصد[٤]. ويحدثنا ابن ظافر أنهم باتوا "ليلة على المقياس عند مبالغة النّيل في نقصه واحتراقه

---

(١) وهو دير حسن البناء محكم الصنعة نزه البقعة وفيه رهبان مقيمون به، وفي هيكله صورة مريم عليها السلام في لوح والناس يقصدون الموضع للنظر الى هذه الصورة، وكان خمارويه بن أحمد بن طولون يستحسن هذه الصورة ويشرب على النظر اليها. ودير القصير هذا أحد الديارات المقصودة والمنتزهات المطروقة لحسن موضعه واشرافه على مصر وأعمالها. ويعرف ايضا بدير البغل. وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدمه، فأقام الهدم والنهب فيه مدّة أيام. (انظر خطط المقريزي ٢: ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

(٢) البدائع ١: ٢١٦.

(٣) مقبرة مشهورة بمصر في سفح المقطّم، والاجماع على انه ليس في الدنيا مقبرة أعجب منها ولا أبهى ولا أعظم ولا أنظف من أبنيتها وقبابها وحجرها ولا أعجب تربة منها كأنها الكافور والزعفران مقدّسة في جميع الكتب. ويقال ان عمرو بن العاص أنشأها بأمر من عمر بن الخطاب حين بلغه ان المقوقس يريد شراء سفح المقطّم الذي لا يزرع ولا يستنبط فيه ماء بسبعين ألف دينار، لأن فيه غراس الجنة، فكان رده: إنا لا نعلم من غراس الجنة الا المؤمنين فاقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء. وفيها الكثير من المساجد والجوامع والرباطات والمصليات والمحاريب وقبور عليها مبان معتنى بها وفيها القبة العالية العظيمة المزخرفة التي فيها قبر الشافعي ومدرسة كبيرة للشافعية. وهي لا تكاد تخلو من طرب ولا سيما في الليالي المقمرة، وهي معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر منتزهاتهم. (الخطط ٢: ٤٤٣ ـ ٤٤٥).

(٤) يعرف الجرف المطلّ على بركة الحبش بالرّصد وقد بنى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في سطحه جامعا عرف بجامع الفيلة لأن في قبلته تسع قباب في أعلاه ذات قناطر تشبه من بعيد مدرّعين على فيلة. ثم بنى الأفضل مسجد الرّصد لأجل رصد الكواكب بالآلة التي يقال لها ذات الحلق. وهذا الجرف ـ أي الرصد ـ منظرة في غاية الحسن لأنه يشرف على أجمل المناظر. (انظر الخطط ٢: ٢٨٩، ٤٤٥).

وانفراجه عما لم يزل مستورا من أرضه وانفراقه ، والمراكب قد انتظمت في لبته وركدت بالارساء فوق لجته وأحاطت به احاطة المحيط بنقطته وسفها الرياح تعبث بها حتى كادت تذهب بوقارها ..."[1] ثم أخذوا يقولون الشعر في ذلك المنظر على البديهة . وأمثال هذه الليلة كثيرة، وهو يقول فيها[2]:

فَغَدَوْنا تحتَ الدّجى نتعاطى من رقيقِ الآدابِ خمرًا رقيقَا

ونستطيع ان نقطع بأن أكثر هذه المساجلات انما تمت في هذه الفترة حيث يذكر فيها القاضي الأعزّ علي بن المؤيد لأن ابن ظافر فجع بفقد هذا الصديق أيام حكم الملك العزيز في مصر ، وكان ذلك بين سنتي ٥٨٩ ـ ٥٩٥ . وقد دفن هذا الصديق في الاسكندرية، فكان علي وصديقه شهاب الدين يعقوب يتردد ان على قبره عند زيارتهما لتلك المدينة[3] .

كان الملك العادل يطمع في أن تكون مصر تحت حكمه ولكنه لم يستطع الحصول عليها الا بعد وفاة الملك العزيز فدخل مصر في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٩٦، ولم يكد يستقر فيها حتى واجهته أحداث المجاعة والوبأ والغلاء الشديد ، فتقرّب الى أهلها بكثرة الاحسان والصدقات من ماله الخاص. وفي هذه الفترة توفي ظافر بن الحسين كما قدّمنا، وبقي منصبه

---

(١) البدائع ١: ١١٥ .
(٢) البدائع ٢: ٢١١ .
(٣) البدائع ١: ١١٠ .

بمدرسة المالكية شاغرا . ويقول ابن شاكر[١] ان عليا درّس بمدرسة المالكية بعد أبيه ، ولكنّنا لا نستطيع أن نقطع بأنه خلفه في التدريس مباشرة إثر وفاته . على أي حال، اذا كان علي قد تسلّم هذا المنصب سنة ٥٩٧، فانه لم يقم به طويلا لأننا نجده يعود الى وصل حباله برجال الدّولة الأيوبيّة على نحو يوحي بالتنقّل الذي لا يناسب منصب مدرّس مستقرّ. فقد عاد يتصل برجال دولة العادل وفي مقدمتهم الصاحب الأجل صفي الدين أبي محمد عبد الله بن علي بن شكر[٢] وهو يحدثنا انه كان عنده "في المعسكر المنصور على بلبيس عند بروز السلطان لسفرته الثانية حين حوصرت دمشق الحصار الثاني في خيمته بمجلس حفل لم يعدم فيه أحد من مشايخ الدّولة ووجوهها، وهم اذ ذاك متوفّرون لم ينقص لهم عدد ولا فقد منهم أحد"[٣]. وكانت هذه السفرة الثانية، ويسمّيها ابن واصل "المنازلة الثانية"، سنة ٥٩٧[٤]. وتوثّقت صلة ابن ظافر بالصفي حتى انه غادر مصر فكان سنة ٥٩٩ في صحبته بدمشق، وقد ورد كتاب من الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة ومعه نسخة من ديوان شعره فأخذ الصفي

---

(١) الفوات ٢: ١٠٧.

(٢) وهو وزير العادل الذي تمكّن منه تمكنا لا مزيد عليه واستولى عليه ظاهرا وباطنا . (انظر ترجمته في الفوات ١: ٤٦٣-٤٦٦، شذرات الذهب ٥: ١٠٠، معجم البلدان ٢: ٦٠٢، النجوم الزاهرة ٦: ٢٦٣، ٢٨٠).

(٣) البدائع ١: ٢٥٨.

(٤) ابن واصل ٣: ١٢٣.

يشتغل بتسويد ردّ على ذلك الكتاب، ثم التفت الى ابن ظافر وطلب اليه أن يكتب أبياتا ليجعلها في صدر الجواب (١).

ويشكّل اتصاله هذا بالوزير صفي الدين ــ وهو رجل الدولة الاول ــ علامة فارقة في تطوّر حياته، فعن طريقه التحق بخدمة العادل وأصبح كاتبا "ترسّل الى الديوان العزيز" (٢). وفي بلاط العادل التقى بأدباء العصر وفضلائه وخاصة ابن دحية الذي كان له أثر حاسم في تطوّره الثقافي كما سنبيّن فيما بعد. ويبدو ان علاقته الوثيقة بالصفي ــ وقد كان هذا يعجب به ويقدّره ولابن ظافر دالّة عليه ــ كانت موضع حسد، لأنه كان يخشى "كثرة ..... المترقبين لي المنتظرين حلول فاقرة الشّماتة بي" (٣).

ومنذ عهدئذ أصبح في خدمة الملك العادل يتنقّل بتنقلاته. ولما كان الملك العادل بالاسكندرية أواخر سنة ٦٠١ وأوائل سنة ٦٠٢ حضر ابن ظافر "مع من حضر للهناء من الفقهاء والعلماء والمشايخ والكبراء وجماعة الديوان والأمراء في يوم من أيام الجلوس للأحكام والعرض لطوائف الأجناد بالتطم، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من العسكر الا حضر مهنيا ومثل شاكرا وداعيا. فلما غصّ المجلس بأهله وشرق بجمع الناس وحفله، وخرج مولانا السلطان خلد الله ملكه الى محلّه واستقر في دسته، أخرج كتابا ناوله الى

(١) البدائع ٢: ٦١.
(٢) الفوات ٢: ١٠٧.
(٣) البدائع ٢: ٥٨.

الصاحب الأجل صفي الدين أبي محمد عبد الله بن علي وزير دولته وكبير جلته"[١]. وكان الكتاب المذكور من الملك المعظّم كتبه الى أبيه العادل يتشوّقه ويستعطفه لزيارته ويرفقه ليعود الى الشام ويجعلها ثغرا يقاوم العدو. وفي عرض الكتاب حديث عن شدّة الحرّ بمصر، وفي الكتاب أبيات تفصح عن هذا المعنى. طلب العادل من يردّ على القصيدة بمثل بحرها وروّيها، وعندئذ اقترح الصفي ان يتولى ابن ظافر هذه المهمة، لما تعوّده فيه من اتقاد الخاطر وسرعة الاجابة، فحوّله العادل الى موضع منفرد لكي يأمن ضوضاء الحاضرين. واستولت الدهشة أول الأمر على ابن ظافر حتى "فقدت رجليّ انخزالا وذهني اختلالا لهيبة المجلس في صدري"[٢]، ولكن لم تلبث قريحته ان أسعفته في وقت قصير. وبعد ان بيّض القصيدة عاد بها الى مجلس العادل فظنّ انه عجز عن انشاء شيء ما لقصر الوقت الذي استغرقه في كتابتها، وأنشد العادل ما نظمه، فكان من ذلك قوله[٣]:

ما زرتُ مصر لغير ضبطِ ثغورِها ... فلذا صبرتُ وقُدتَ عن رؤياكا

أنا كالسحابِ أزورُ أرضا ساقيًا ... حينا، وأَمنحُ غيرَها سقياكا

مكثي جهاد للعدوّ لأنني ... أَغزوه بالرأيِ السَّديدِ دِراكا

---

(١) البدائع ٢: ٥٥.
(٢) البدائع ٢: ٥٨.
(٣) البدائع ٢: ٥٩.

لـولا الرّباطُ وفضلُـه لقصدتُ بالسّـيرِ الحثيثِ إليك نيلَ رضـاكـا

ولئن أتيتُ الى الشـآم فإنمـا يَحْتَثُّني شـوقي إلـى لقياكـا

إني لأمنحُـك المحبـةَ جاهـدًا وهوايَ فيمـا تشـتهيه هواكـا

ولما ذكر في قصيدته الملك الكامل وشبّهه بالقدح المعلّى بـين أبناء السلطان اغرورقت عينا السلطان لذكره ، وما ان انتهى الى آخر القصيدة حتى فاض دمعه ، ومدّ يده لتسلّم الورقة، قال ابن ظافر: "فناولتها الى يـد الصاحب فناولهـا له ثم نهض"(١).

ولا نستطيع ان نفهم هذه القصة بوضوح وان ندرك معنى استدعـاء الملك المعظم لأبيه الى دمشق الاّ حين نربط هذا كلّه بحقيقة تاريخيّة، وهي ان الملك العادل حين تمهّدت له البلاد قسّمها بين أولاده فأعطى الملك الكامل محمدا الديار المصرية وظلّ الى جانبه أكثر الوقت، وأعطى الملك المعظّم عيسى البلاد الشاميّة، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقيّـة وخلاط وميافارقين والرّها وأعمالها(٢). وكان العادل يتردد على ممالك أبنائه حتى وفاته سنة ٦١٥، الاّ أن اكثر اقامته بمصر حيث توفي .

ولعلّ الحادثة المذكورة هي التي عرّفت الملك العادل بما توفّر لـدى

---

(١) البدائع ٢: ٦٠ .
(٢) ابن واصل ٣: ٢٧٤، النجوم الزاهرة ٦: ١٦٣ .

ابن ظافر من قدرة انشائية وأكسبته ثقته ، فأخذ يعتمد عليه في سفاراته ونقل رسائله الى أجزاء مختلفة من ممالك أبنائه ، فأنفذه في رسالة الى الملك الأشرف بالرّها سنة ٦٠٣، فاستقبله الأشرف بالحفاوة، وأنزله في بعض دوره بالقلعة بحيث يقرب عليه حضوره اذا أراد أن يتحدّث اليه . قال ابن ظافر : "فلم أشعر في بعض الليالي وأنا نائم في فراشي الاّ وهو قائم على رأسي ، والسّكر قد غلب عليه والشموع تزهو بين يديه، وقد حفّت به مماليكه كأنهم الأقمار الزّواهر في ملابس كرياض ذات أزاهر ، فقمت مسرعا فأمسكني وبادر بالجلوس الى جانبي ، ومنعني من القيام عن الوساد وأبدى من جميله ما أبدلني بالنفاق بعد الكساد ، ثم قال : غلبني الشوق اليك ولم أرد بازعاجك التثقيل عليك . ثم استدعى من بمجلسه من المغنين فحضروا وأخذوا من الغناء فيما يملأ المسامع التذاذا ويجعل القلوب من الوجد جذاذا ..."[1] . ولم يقتصر في هذه الزيارة على زيارة الرّها ، بل زار ماردين وميّافارقين، وكان رفيقه في بعض أسفاره أبا الحسن البوني[2] . وعاد في سنة ٦٠٧ في رسالة الى الموصل ، فمرّ بالأشرف أيضا فأمسكه عنده بالرّها حوالي شهر[3] .

ومن كل هذا يبدو حرص الأشرف على صحبة ابن ظافر واعجابه بشخصيته فليس بمستغرب ان يغريه بالدخول في خدمته . وفي أواخر سنة ٦٠٨ كان

---

(١) البدائع ٢: ٦١ ــ ٦٣ .
(٢) البدائع ١: ٦٩ .
(٣) البدائع ٢: ٦٤ .

علي بن ظافر قد أصبح وزيرا للأشرف يدبّر له دولته . وكان الملك الأشرف في بادئ أمره يتولّى مدينة الرّها ثم أضيفت اليه حرّان، وفي سنة ٦٠٦ استولى على نصيبين، وفي التالية استولى على سنجار والخابور ومعظم بلاد الجزيرة ، وأكثر اقامته بالرقة لأنها على الفرات[١] . فلما وزر له ابن ظافر كان يتنقل بتنقله بين بلاد سلطنته ، فأحيانا يحدثنا انه كان برأس العين،[٢] وأحيانا بنصيبين في أواخر سنة ٦٠٨، حيث ضرب الأشرف خيمته على تل بين بساتينها يعرف بتل أبي نواس، وأبقى ابن ظافر في البلد "لتدبير أحوالها وتزجية وجوه أموالها"، فاذا انتهى من عمله قطع المسافة بين البلد وخيمة الأشرف في طريق محفوفة بالبساتين ذات أنهار وظلال[٣] .

كم أقام ابن ظافر في خدمة الأشرف؟ ليس من سبيل الى القطع بذلك، غير ان ابن ظافر يعلّل عزوفه عن البقاء في الخدمة بما كانت "عليه الأحوال من الاختلال"[٤]. واذا كان لهذه العبارة من دلالة تاريخيّة فانها قد تشير الى تلك الفترة من العلاقات المضطربة بين الأشرف من ناحية وابن عمه الأفضل صاحب سميساط وعز الدين كيكاوس صاحب الروم من ناحية أخرى وذلك

---

(١) ابن خلكان ٤:٤١٣.
(٢) البدائع ١:٩٥ ـ ٩٦.
(٣) البدائع ١:١٩٩ ـ ٢٠٠ .
(٤) البدائع ١:٩٧.

بعد وفاة الملك الظاهر صاحب حلب، وهي فترة تقع بين سنتي ٦١٣ـ٦١٥ ٠ ويدعم هذا الظنّ قوله في معرض تعريفه بشيخه ابن الحرستاني "قاضي دمشق الآن"(١) ٠ وقد ولي ابن الحرستاني قضاء الشام في آخر عمره سنة ٦١٢، وكانت وفاته في رابع ذي الحجّة سنة ٦١٤(٢) ٠ ونحن نذهب الى أن هذا الايضاح التعريفي قد اضافه ابن ظافر في النسخة الثالثة من "بدائع البدائه" التي رفعها للملك الكامل، وبناء عليه فانه انفصل من خدمة الملك الأشرف وانتقل الى مصر فيما بين هاتين السنتين ٠ ومعنى ذلك أن ابن ظافر أقام فترة طويلة نسبيا في خدمة صاحبه، فلما رأى ما حلّ بدولته من الفوضى لم يعد في موقف يمكنه من تحمّل المسؤولية ٠ أضف الى ذلك كله أن ابن ظافر كان قد بعد عهده بمصر، واستولى عليه الحنين الى مسقط رأسه ـ بعد أن أشبع رغبته في التنقل والترحال والاستفادة والاتصال ـ وكانت طبيعته النفسية الملول تستحثه على التغيير(٣) ٠ وبلغ ضيقه وتبرمه بالاقامة في خدمة الاشرف حدا جعله يفضي به الى كلّ من حوله من الناس، بل انه أكب على الدعاء ليل نهار لعلّ الله يريحه مما كان يعتبره ورطة مربكة ٠ وليس أدل على حالته النفسية من اطمئنانه الى رؤيا رآها صاحبه جمال الدين علي بن أبي طالب: "رأى كأنه في جامع دمشق، الى جانبه شيخ وكأنهم ينتظرون الصلاة، واذا شاب قد أقبل من الباب

---

(١) البدائع ١: ١٤ ٠
(٢) شذرات الذهب ٥: ٦٠ ٠
(٣) البدائع ١: ٥ ٠

الغربي ،فقال الشيخ: يا أبا العباس أجز:

إن ابن ظافر سوف يظفرُ بالذي يرجوه عاجلْ

فقال:

ظفرتْ عداه بخيبةٍ وغدا لما قد شاء نائلْ"(١)

وقد تحقّق له أمله، وهو يؤرخ انفصاله من خدمة الاشرف بعودة الأشرف من دمشق، وذلك تاريخ لم أستطع أن أتبيّنه على وجه التحقيق. وقد عبّر ابن ظافر عن سروره بهذا الانفصال حين قال: "وكان ذلك، والله، أعظم ظفر وأرفق قدر، ولو لم يكن فيه الا الرجوع الى الباب الذي منه درجت وفي خدمته تخرّجت والوطن الذي هو أول أرض مسّ ثراها جلدي وعلقت فيها تمائمي، فالله تعالى يحقق الرجاء ويكمل الأمل بمنّه وطوله"(٢).

على أن عودته هذه لم تصدر عن الشوق للوطن فحسب، بل لقد أحكم ابن ظافر خطّته الرامية الى بلوغ الشهرة والمجد في وطنه، "فأعظم ظفر وأرفق قدر" لم يكن الانفصال من خدمة الاشرف على "الوجه الجميل" فحسب، بل كان الاتصال بالملك الكامل، "وهو، أدام الله أيامه، ولي العهد ووارث الملك وواسطة السلك، وهو الذي سارت قصائدك اليه وأحلّتك آمالك فيه لديه،

---

(١) البدائع ١: ٩٧.
(٢) البدائع ١: ٩٧ـ ٩٨.

فعلى بابه تخرجت واليه لما نبت بك البلاد عرّجت، فرجعت الى الجنـــاب الذي أطلع هلالك حتى صار بدرا وأجرى جدولك حتى عاد نهرا .... ولقيت منه بحر العطاء الذي يزخر مدّه وليث السّطاء الذي يحذر شدّه"[1]. واشارة ابن ظافر هذه الى اتصال سابق ربطه بالملك الكامل لا يمكن تفسيرها الا ان يكون قصد بها اتصاله به حين كان في خدمة العادل في مصر، والملـــك الكامل ـ كما أسلفنا ـ هو ولّي العهد ونائب والده في حكم مصر.

عاد ابن ظافر الى مصر واتصل بالملك الكامل وقدّم له نسخة ثالثـــة من "بدائع البدائه" وأمل ان ينال عنده الحظوة والمال. ويبدو أن الكامـــل رضي عنه فولاّه " وكالة بيت المال مدّة"[2]. وفي هـذا ما يدلّ على أنه لم يكـن قد سئم الأعمال السلطانيّـة جملة، وانما سئم الخدمة في ظلّ ظروف مختلّة فـي ديار الجزيرة. وهذا هو السبب الذي جعل ابن شاكر يقول فيه انه كان متعلقا بالدنيا[2]. كان حينئذ، فيما نقدّره، قد شارف الخمسين من عمره، وقد نأت به الأيام كثيرا عن تلك البداية الفقهية التي أرادها له والده. غير انه استيقظ بعيد ذلك على صوت الوازع الديني، فرفض الخدمات السلطانية، ولعلّه ايضـا كفّ عن التعلق بالأدب وانصرف الى مطالعة الأحاديث النبويّة وإدمان النظـر فيها، حتى كان له تلامذة يروون عنه الحديث[2]. ولعلّ تديّنه هذا قـد أثر

(١) البدائع ١: ٦.
(٢) الفوات ٢: ١٠٧.

كثيرا في تنشئته لابنه الصاحب صفي الدين الذي دخل في سلك التصوّف وأصبح شيخ طريقة، وقد ألّف رسالة فريدة في أحوال الصوفيّين في المغرب وسوريا ومصر والحجاز، تحتوي على من رأى من سادات مشايخ عصره (١).

ولعلّ تحوّله هذا وزهده في العمل السلطاني قد تأثر بعامل آخر هو ما حلّ بصديقه الوزير الصاحب صفيّ الدين الذي كانت صولته لا تضاهى وكلمته لا مردّ لهما، ثم غضب عليه العادل وأمر بنفيه عن مصر والشام (٢). فرأى ابن ظافر مآل الشهرة الدنيويّة، ولعله قد أصيب برذاذ مما أصاب الصاحب بسبب علاقتهما الحميمة، فآثر أن يصغي الى صوت ضميره الديني ويصرف الى التزوّد لآخرته ويلتزم العزلة وعدم المخالطة، وهو يبرّر ذلك بقوله (٣):

قلتُ لمن لام في انفرادي ... عن الأخلّاء والأعادي

عُد عن اللّوم يا عذولي ... واعذر فإني على السّدادِ

أفنيت نفسي وجلّ عمري ... وطارف المال مع تلادي ....

وطفت جلّ البلاد أبغي ... أخا سليم الوداد هادي

فلم أصادف سوى لئيم ... وغد بعيد عن الرشاد

يَيَشّ لي ان رأى روائي ... ويضمر البغض في الفؤاد

فلم أجد لي سوى انفراد ... يعصمني من أذى العباد

---

(١) انظر نفح الطيب ٢: ١٦٨، ١٨٢.
(٢) الفوات ٣: ٤٦٤.
(٣) الشهاب الثاقب: ٣١ ـ ٣٢.

تلك هي السيرة الموجزة لابن ظافر ، واذا كانت الأمور على حسب ما قدّرت فان ياقوتا مخطئ حين جعل وفاته سنة ٦١٣ . والأرجح هو ما ذكره ابن شاكر حين جعل وفاته سنة ٦٢٣ . ومما يؤيّد هذا :

(١) ان سير الأحداث في دولة الأشرف يؤكد ان ابن ظافر بقي في خدمته حتى سنة ٦١٣ أو بعدها .

(٢) انه وصل في كتابه " الدول المنقطعة" الى سنة ٦٢٢ . ومن المستبعد ان تكون الفترة المؤرخة بين ٦١٣ و ٦٢٢ من زيادة النسّاخ أو من زيادة مؤلف آخر .(١)

---

(١) يعتقد الاستاذ سامي الدهان ان أخبار الدولة العباسية التي بلغ فيها سنة ٦٢٢ ليست من الكتاب، فان صح ذلك يبقى الترجيح من غير مرجح . (انظر الشهاب الثاقب ، ٨).

٠٣ أخلاقه وشخصيته

كان من الممكن لعلي بن ظافر أن يقنع بما كان والده يهيّئه له من مستقبل، فيرث منصبه في التدريس بمدرسة المالكيّة، لو لم يجتمع له طموح شديد لتبوّؤ أعلى المناصب. وقد زيّن له طموحه هذا، الأدبي والسياسي والصادي، التخلّي عن منصب التدريس الجاهز المستقر وايثار الالتحاق بحاشية الملوك والتقرّب اليهم لما في ذلك من اغراءات ماديّة وسياسيّة لمن ينال الحظوة السلطانية. ولعلّ المتتبع لسيرة حياته يلحظ ان العامل الخفيّ المحرّك له في الكثير من أموره هو هذا الطّموح. فقد اتصل فتيا بالقاضي الفاضل ـ وهو على حد تعبيره ـ "صدر ذلك الزمان وسيّد فضلاء ذلك الأوان"(١) وتقرّب اليه وأصبح يحضر مجالسه ويخرج للقائه(٢). وفي هذا الكثير من اشباع طموحه الأدبي، وهو الشاب الصغير السن الذي يخالط من تضمهم حلقة القاضي من الأدباء ورجال العلم والدّولة ويأخذ عنهم ويتداول واياهم في أمور الأدب واللغة ويباريهم في قول الشعر، هذا بالاضافة الى عطف القاضي وحدبه عليه وتشجيعه له وتقديره لموهبته وثقافته(٣). ثم كان اتصاله بملوك الدولة الأيوبيّة ورجالاتها فبدأ بالانضمام

---

(١) البدائع ١: ٣٠

(٢) البدائع ١: ١٠٩.

(٣) البدائع ١: ٣، ١: ٢٦١، ٢: ٢٠٣ـ ٢٠٤.

الى حاشية الملك الأفضل وانتقل منها الى خدمة الملك العادل ثم وزر للملك الأشرف، وانتهى به المطاف الى ولاية بيت المال للملك الكامل كما أسلفنا . ويتجلّى طموحه بوضوح في كل مرحلة من هذه المراحل، فلقد كان يؤمّل أن ينال الشهرة عند الأفضل، ثم لما رأى اضطراب الأحوال في حاشيته وانصياعه لمشورة ابن الأثير وآرائه وارتحال ذوي الشأن والفضل من القضاة والأدباء والعلماء وتخليهم عنه ، بمن فيهم القاضي الفاضل والعماد الكاتب ، آثر الانضمام الى خدمة الملك العادل الذي رجحت كفّته على كفّة أولاد صلاح الدين، وخاصة الأفضل، وكان له النصر النهائي . على أنه لم يكن ليرضى بما دون الوزارة، فاختار وزارة الملك الأشرف بعيدا عن أهله ووطنه على أن يبقى في خدمة العادل في مصر بلا وزارة . ومكث عند الملك الأشرف أطول فترة، ولكن ما أن اختلّت الأحوال حتى قويت في نفسه شهوة الانفصال[1] مرّة أخرى، فوطّد العزم على العودة الى الوطن والالتحاق بخدمة الملك الكامل وهو " وليّ العهد ووارث الملك"[2] علّه يهيّء لنفسه مركزا مرموقا حين يتسلّم الكامل الارث من أبيه ويصبح السلطان الأول في البلاد . وأعتقد أن رغبته هذه وبعد نظره وحسن تخطيطه ـ الى جانب عوامل أخرى أتينا على ذكرها في سيرته ـ هي التي جعلته يتريّث في خدمة الملك الأشرف ،

---

(١) البدائع ١، ٩٧ .
(٢) البدائع ١، ٦ .

على تبرمه بها حينذاك، ولا ينفصل منها الا على "الوجه الجميل"[١] الذي لا يوفر صدره فيوعز الى أخيه الكامل بعدم الاكتراث بعلي، بل لعلّه، بذكائه ودهائه، حصل من الأشرف على توصية تشفع له عند الكامل.

على أن طموحه السياسي هذا لم يصرفه عن طموحه الأدبي، فلقد بدأ حياته يتوسل بالأدب لبلوغ المركز السياسي، ولكنه أراد من المناصب السياسيّة أيضا أن تفسح له مجال الشهرة الأدبيّة. فكان يؤلف الكتب الطريفة في موضوعها التي "لم يجد أحدا من المؤلفين ولا مصنّفا من المصنفين اشتغل بتمييز ذهبه عن مدره ولا خاض في بحاره لاستخراج درره"[٢]، وكان يرجو ان تكون "طليعة لما بعده مما يرد عليه الأمر باقتفاء مثاله"[٣]. وهو، لأجل ذلك، يأتي في تآليفه بـ "حكايات لم يرقمها في الطرس بنان"[٤]، ويجمع الفن الذي "لم يجمعه قبلي أحد ولا سطّرته قبل يدي يد"[٥]. وكان الأمل يحدوه ان تظفر كتبه بالقبول والنفاق فيوقف على أثرها ويسمع بخبرها، وهي لو كانت حصلت في الخزائن التي تعرف قيمتها وقدرها "لتوشحت صدور مجالسه بعقودها وتزينت معاطف مذاكرته ببرودها

---

(١) البدائع ١ : ٩٧ .
(٢) التشبيهات، الورقة: ٦ أ .
(٣) التشبيهات، الورقة: ٦ ب .
(٤) البدائع ١: ٣ .
(٥) البدائع ١: ٦ .

ولدارت كؤوسها وجليت عروسها، ولأشرقت زواهرها وعبقت أزاهرها ولسارت شوارد ها وطارت أوابد ها"[١]. وفي سبيل تحقيق هذا الطموح الأدبي كان يسعى لتلقي العلم على أيدى أفضل شيوخ زمانه؛ فشيخه تاج الدين الكندى هو نفسه شيخ الملك المعظم الذى "كان مديما للاشتغال عليه وكان ينزل اليه من القلعة"[٢]، وشيخه أبو الخطاب بن دحية هو مؤدب الملك الكامل الذى كان يعظمه ويحترمه ويعتقد فيه ويتبرّك به لدرجة أنه كان يسوّي له المداس اذا قام. وفي سبيل تحقيق هذا الطموح أيضا كان يستغلّ أسفاره ورحلاته وتنقلاته الرسميّة لجمع الأخبار الأدبية والالتقاء بالعلماء والأدباء، وكانت نفسه الطموح تستحثه على الازدياد و"تهوّن خطب التنقل وصعب التبدّل والتحوّل"[٣]. ولعلّ طموحه الأدبي كان هاجسه الأهم؛ فحين تضطرب الأحوال وتحتل الشؤون السياسية والادارية مركز الصدارة يستقيل ابن ظافر من منصبه الرّسمي كما استقال من وزارة الأشرف.

أما طموحه المادى فقد أمل تحقيقه عن طريق انتاجه الأدبي فهو يبدع قصائده وكتبه راجيا أن ينال بها رضا من يخدم فتشمله

---

(١) البدائع ١: ٥ـ٦.
(٢) شذرات الذهب ٥: ٥٥.
(٣) البدائع ١: ٥.

نعمته وعطاؤه ، وهو يخاطب الملك الأفضل قائلا :[١]

فَعَجِّلْ لي بجودك يا مليك الـ أَ نامِ فقد أطلتُ له مقامي

ولعلّ هذا الطموح قد تحقق على الوجه الأفضل لدى اتصاله بالملك الأشرف الذي اشتهر بأن " ليس للمال عنده محل، بل يمطره مطرا كثيرا "[٢]، فكان هذا سببا اضافيا لاستمراره في حاشيته فترة أطول . وهو يذكر الخلع الخاصة التي كان ينالها من الأشرف في أكثر من موضع في 'بدائع البدائه'[٣].

على أن الطموح وحده غير كفيل بأن يجلب على صاحبه حظا كبيرا كذاك الذي أصاب علي بن ظافر . فلا بدّ ان تكون قد اجتمعت فيه جملة صفات أسعفته على بلوغ المراكز التي بلغ ، وأوقعته من قلوب الذين خدمهم الموقع الحسن، وجعلت ياقوتا يقول فيه : " كان نعم الرجل "[٤].

ولعلّه مدين بالقسط الأوفى من ذلك الى نشأته الأولى في جوّ فقه وعلم والى رعاية والده العلاّمة له وتعهده اياه ممّا مهّد له سبيل التسلح بالمؤهلات الثقافيّة والعلميّة اللازمة لمن يلتحق بحاشية الملوك . أضف الى ذلك أنه كان شاعرا موهوبا "طلق العبارة"[٥] "متقد الخاطر حاضر الذهن

(١) التشبيهات ، الورقة : ٤ أ .
(٢) ابن الاثير ١٢ : ٣٥٢ .
(٣) انظر مثلا البدائع ٢ : ٦١ـ٦٣ .
(٤) معجم الأدباء ١٣ : ٢٦٥ .
(٥) الفوات ٢ : ١٠٧ .

سريع اجابة الفكر"[١]. كما كان لطيف المعشر يسعى الى تأدية الخدمة على أتمّ وجه[٢]، محبوبا ممن يحتك بهم، ولنا في أخباره المتناثرة مع الملك الأشرف الذى كان يغلبه الشوق اليه الى حدّ يجعله يذهب اليه ويوقظه من نومه[٣]، أصدق دليل على ذلك. ولم يكن الأشرف وحده متعلقا بعلي يكن له الاحترام والتقدير، بل لقد شاركه في ذلك الصاحب صفي الدين الذى كانت لابن ظافر دالّة عليه[٤]، مع ما عرف عنه من رعونة مفرطة وهوج وخبث وصعوبة طبع[٥].

ويجدر بنا أن نلاحظ أنه جمع بين ودّ صفيّ الدين هذا وود القاضي الفاضل على ما بينهما من كراهية[٦]، كما جمع بين ودّ الكندى وودّ ابن دحية مع أن كلا منهما لا يطيق الآخر بل يعرّض به ويجرّحه والعداوة بينهما معلنة مشهورة[٧].

---

(١) البدائع ٢: ٥٨.
(٢) التشبيهات، الورقة: ٦ أ.
(٣) البدائع ٢: ٦٢.
(٤) البدائع ٢: ٦٠.
(٥) الفوات ١: ٤٦٤.
(٦) كان صفي الدين يقول: "ما في قلبي حسرة الا من ابن البيساني" ...وكان القاضي قد قال: "واما ابن شكر فهو لا يشكر، واذا ذكر الناس فهو الشئ الذى لا يذكر". (انظر الفوات ١: ٤٦٥).
(٧) كان الكندى يسفّه ابن دحية ويكذّبه في نسبه. وقد ألف ابن دحيّة "الصارم الهندى في الرد على الكندى" فبلغ ذلك الكندى فصنّف "نتف اللحية من ابن دحية". (انظر شذرات الذهب ٥: ١٦٠، وحاجي خليفة ٢: ١٠٧٠).

ولعل شيمة اخرى من شيمه لعبت دورا بارزا في تقدير هؤلاء له وتعلّقهم به ، أعني وفاءه واخلاصه لأصدقائه ، اذ لا بدّ لمن يتصفّح كتاب بدائع البدائه أن يكتشف هذه الشيمة، فهو يكثر من ذكرهم وسرد أخبارهم، ويرافقهم في التجوال والترحال والتنزه[1] ويعودهم اذا مرضوا[2]، ويتراسل واياهم حين يتبدّد شملهم[3]، ويفتقدهم حين يتغيّبون عن ليلة سمر مؤنسة، كما حصل حين غاب القاضي الأعز ابن المؤيد مرّة فكتب اليه :

غبتَ عني يا ابن المؤيَّدِ في وقتٍ يُلهي المحبَّ المَشوقا[4] ...

ذاك وقتٌ لولا مَغيبُك عنه كان بالمدحِ والثناءِ خليقا[5]

وحين فجع بفقد هذا الصاحب العزيز ذهب لزيارة قبره في الاسكندرية برفقة صديقه الحميم شهاب الدين يعقوب فنزلا الى فناء قبره وأسبلا سبل المدامع لذكره[6] .

وقد بادله أصحابه ودّا بودّ فكان صفيّ الدين يمدحه ويزكّيه للملك العادل ويرشحه للقيام بتلبية رغباته الانشائية لأنه "فارس هذا

---

(١) انظر مثلا البدائع ١: ١٩٣ـ١٩٤، ١٩٨.
(٢) البدائع ٢: ٥٤.
(٣) البدائع ١: ١٩١، ٢: ٢٠٨ـ ٢١٣.
(٤) البدائع ٢: ٢٠٩.
(٥) البدائع ٢: ٢١١.
(٦) البدائع ١: ١١٠.

الميدان والمعتاد للتخلص من مضايق هذا الشان"، وقال: "أنا جربته فوجدته متقد الخاطر حاضر الذهن سريع اجابة الفكر"[1].

غير أن هذا الاخلاص لم يكن من صفات جميع من اصطفاهم لصداقته، بل لعل بعضهم قد سامه الغدر والخيانة، فكان لذلك وقع موجع في نفسه أفضى به الى العزلة والانقطاع عن الناس ومحاولة شفاء غليله بتأليف "شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل". واذا كانت الظاهر السلبية دليل واقع ايجابي، فان هذا الكتاب يمثل برهانا آخر على وفاء ابن ظافر وتعلقه بأصدقائه وبذل كل شيء في سبيل الحصول على خلّ وفيّ.

وتبين لنا الحادثة الغريبة التالية[2] ما فطر عليه ابن ظافر من الوفاء ورهافة الحس، ذلك أنه قرأ في "اليتيمة" حكاية أبي الفرج الببغاء مع المارداني في دير مران[3]، وقد أنفذ المارداني راهبا يستعطف أبا الفرج أن يوافيه سرا، ففعل. ثم كان بينهما لقاء لطيف ومسامرة ممتعة مؤنسة، وعرف أبو الفرج أن المارداني مستتر لدين ركبه، فآثر كتمان أمره. ثم ارتحل ولم تسنح له فرصة أخرى لزيارة هذا الفتى، فبات قلقا متحسرا لفراقه دون طمع في لقائه أو معرفة حقيقة حاله. ولم ينسه الى ان عاد الى

---

(١) البدائع ٢: ٥٨.

(٢) انظر القصة في البدائع ١: ١٢٤ ـ ١٣٧.

(٣) دير بالقرب من دمشق على تل مشرف على رساتيق حمسة. (معجم البلدان ٢: ٥٣٢).

دمشق فذهب الى الراهب وعرف حقيقة الأمر منه. وقد تأثر ابن ظافر أشد التأثر بهذه الحكاية، لدرجة أقسم معها أنها "وان طالت لحقيقة أن تكتب بالمقل السود على صفحات الخدود ... فرحم الله أبا الفرج وصاحبه فلقد استحقا منّا بهذه الحكاية حمدا وشكرا وأبقيا لهما في الظرفاء ذكراء ولقد بلغ من طربي بها وارتياحي لها عند قراءتها ما اني أوسع هذا الفتى المارداني دعاء وترحيما وأتبع ذكره صلاة عليه وتسليما حتى اني أكثر قصد ترب المارداني بالزيارة والدعا أملا أن يكون في جملتهم وطمعا، وما أنا واياهم الا كما قال خالد بن يزيد:

أحبُّ بني العوّام من أجل حبها ومن أجلها أحببتُ أخوالَها كلبا

وهذه غاية جهدي مع تربة داثرة ورمّة باليةء فرحمه الله كلما غرب نجم وطلع ونبت نجم وأينع بحرمة محمد نبيه صلّى الله عليه وسلّم"[1].

فمن كانت هذه حاله من الوفاء والاخلاص لذكرى من يقرأ عنهم دون أن تربطه بهم معرفةء كيف يكون اخلاصه لمن يسايرهم ويعاشرهم ويقضي عمره واياهم؟ !

ومما يتعلق بوفائه للأصدقاء حبّه لوطنه الأم ووفاؤه له. فهو

---

(١) البدائع ١: ١٣٧.

يحنّ اليه ويتشوق ويجد فراقه عسيراً[١]، فيزوره حين تسنح له الفرصة[٢] ولا يهوّن أمر هذا الفراق عليه سوى علوّ همّته وحرصه على بلوغ أعلى الغايات[٣]. وحين تم له ذلك عاوده حنين قوى الى "الوطن الذي هو أول أرض مسّ تراها جلدى وعلقت فيها تمائمي" وعدّ ذلك "أعظم ظفر وأرفق قدر" ينالـه ـ "ولو لم يكن فيه الا الرجوع الى الباب الذى منه درجت وفي خدمته تدرّجت"[٤]، وهو يقصد بذلك تجديد اتصاله بالملك الكامل . الا أن هذا الاتصال لم يعمّر طويلا، فعاد ابن ظافر الى أول باب منه درج بحق باب الفقه والتديّن. وقد تكون هذه هي المرّة الاولى في حياته التي يتجه فيها وجهة لم يخطط لها تخطيطا مسبقا . ولعله هو نفسه لم يكن على بيّنة من استحكام تربيته الدينيّة الأساسية في نفسه ، فقد لازمته طول عمره تخبو حينا وتبدو حينا آخر، كأن يذهب في "سفرة الى البيت المقدّس للتبرّك بما هناك من البقاع المقدّسة والمشاهد المعظمة وأجداث الأنبياء المباركة الطيّبة"[٥]. وظلّت هذه النزعة الدينيّة تصطرع

---

(١) البدائع ١: ١٣٨.
(٢) البدائع ١: ٩٨.
(٣) البدائع ١: ٥.
(٤) البدائع ١: ٩٨.
(٥) البدائع ١: ١٣٨.

في داخله مع الأهداف الدنيويّـة التي ينشد ـ وكان من أثرها أن اشتهر عنه أنه "مع تعلقه بالدنيا، كان له ميـل كبير الى أهـــل الآخرة، محبـا لأهل الدين والصلاح"[1] ـ حتى زهد في أمـور الدنيا فكانت لها الغلبـة النهائيـة.

ولعلّنـا حين نمعـن الفكـر، كمـا فعـل ابن ظافـر، "فـي ضعف الغرائز البشرية والجبلات الانسانية ورغبتها أبدا في الزيـــادة وحرصها على بلـوغ الغاية، وافتباطها بالشيء حتى اذا حصلته وظفرت به وأنشبت مخالبها فيـه مالـت الى الملـل وخلقت لسآمته العـــلل وطلبت ما يرتفع عنه وسخطت ما كانت رضيته منـه"[2]، لعلنـا نـــدرك تحوّل ابن ظافر الأخير عن خط سيره الذي التزمـه، بل اننا نضـــع يدنـا على مفتـاح الدوافع النفسـيّة التي وجهت مراحل حياته جميعا.

---

(١) الفوات ٢: ١٠٧.
(٢) البدائع ١: ٥.

٤٠ ثقافتـه واتجاهاتـه الفنيّـة

اعتنى ظـافر بن الحسين عناية شديدة بتربية ولده علي وتثقيفـه ، فدرّسه الفقه وأقرأه الأصول وقدّمه الى أصدقائه من العلماء والأدبـاء . وقد وجدت جهود ظافر أرضا خصبة في نفس علي المتعطشة الى العلـم والأدب المتطلعة أبدا الى الاستزادة منهما، حتى تحصّل له ، وهـو دون العشرين، ذخيرة واسعة من الثقافة، اذ كان قد اطلع على أكثر من ١٥٫٠٠٠ ورقـة[1] في الشعـر وحـده .

وكان علي مجتهدا في طلبه للعلم، ولم يكتف بالدراسة علـى والده ، بل انه حرص على ان يستفيد من شيوخ ثقـات[2] لهم مكانـة مرموقة[3] في دنيا الأدب والمعرفة. فلقد أقرأه الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الخالق المسكي الكثير من أخبار الجاهليين والعباسيين والأندلسيين وأجـازه

---

(١) التشبيهات ، الورقة : ٦ أ .

(٢) استخلصنا مادة هذا الجزء مما أورده ابن ظافر في البدائع مسندا الى هؤلاء الشيوخ .

(٣) وان كان التجريح أصاب أحدهم ـ ابن دحية ـ فهو يوثّقه ويثق بـه .

روايتها عنه ، وكثيرا ما كتب له بخطه بعض هذه الأخبار. وقرأ "اليتيمة" على الشيخ أبي الحسن المقدسي[١] وحصل على اجازته في روايتها وروايـــة الكثير من أخبار الأندلسيين. كما أجازه الشيخ ذو النسبتين أبو الخطاب عمر بن دحية[٢] رواية "الذخيرة" و"ديوان ابن خفاجة". وقرأ "الاغانـي" وغيره من أخبار الجاهليين والأمويين على الشيخين تاج الدين أبو اليمـن الكنـدى[٣] وجمال الدين ابن الحرستاني[٤] وحصل على اجازتهما. وقرأ علـى العماد أبي حامد الأصفهاني تاريخ السمعاني وكتاب عمارة اليمني في شعراء اليمن والكثير غيره وحصل على اجازته. ولم يقنع علي من هؤلاء الشـيوخ بالثقافة القديمة، بل انه أخذ عنهم الثقافـة العصرية أيضا واستجازهـم

---

(١) القاضي الفقيه الامام نبيه الدين أبو الحسن علي بن المفضل المقدسـي الاسكندراني المولد والدار، المالكي المذهب. كان ينوب في الحكم بثغـر الاسكندرية ودرّس هناك في المدرسة المعروفة به ثم انتقل الى القاهـرة ودرس بالمدرسة الصاحبية التي أنشأها الوزير صفي الدين حتى وفاته سنة ٦١١. (ابن خلكان ٢: ٤٥٢).

(٢) أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي البلنسي، حافظ ومؤرخ وأديب اندلسي مشهور، رحل الى المشرق واستقر بمصر. له كتـاب "المطرب في أشعار اهل المغرب". توفي بمصر سنة ٦٣٠. (شذرات الذهب ٥: ١٦٠).

(٣) العلامة تاج الدين الكندى أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن شيخ الحنفية والقراء والنحاة بالشام ومسند العصر، توفي سنة ٦١٣ فنزل الناس بموته درجة في القراءات والحديث. (شذرات الذهب ٥: ٥٤).

(٤) قاضي القضاة جمال الدين عبد الصمد بن محمد المشهور بابـن الحرستاني. كان صارما عادلا ورعا زاهدا صالحا كبير القدر لا تأخـذه في الله لومة لائم وانتهى اليه علو الإسناد. (شذرات الذهب ٥: ٦٠).

رواية أخبار المحدثين وأشعارهم، وكان اذا ضاق به الوقت عن اتمام الدراسة على أحد شيوخه استجازه رواية ما تبقى، فأجازه دون تردد حسب العادة المتبعة في ذلك العصر؛ من ذلك أن العماد أخبره أنه سمع جميع شعر القاضي أبي بكر على ابنه عنه، وطلب من ابن ظافر قراءته عليه فلم يتفرغ لذلك فأجازه روايته في جملة ما أجازه (١).

وقد لعبت هذه الدراسة الجدّية على أيدي هؤلاء الشيوخ دورا مهما في تطوّر ابن ظافر وتنمية امكاناته ومكنته من الالمام بألوان مختلفة من المعارف ومن الاطلاع على الروايات المختلفة وأسانيدها. ولعلّ أهم ما أفاده منها هو تدقيق الروايات وعدم قبولها على علاتها بل تمحيصها وحسن التحقق منها. ولعلّ التنافس الذي كان بين هؤلاء الشيوخ وتجريحهم بعضهم لبعض ــ كما في علاقة الكندي وابن دحية ــ كان عاملا مهما جعله يسعى جهده لالتزام الدقة وتحرّي الصواب عن طريق المقابلة بين الروايات ومحاولة تقصّي الأخبار في جميع المصادر. وقد برع ابن ظافر في هذا كثيرا، حتى اننا نجده أحيانا يخطّئ أستاذه المسكي في بعض ما أجازه اياه، كما في روايته عن علاقة بشّار وعنان حيث يقول: "عنان لم يدركها بشار وانما كان يشاغبها ابو نواس، ولهما في مثل هذا أخبار كثيرة" (٢). وقد تمكن من

---

(١) البدائع ٢: ١٦٦.
(٢) البدائع ١: ٣٧، وانظر ايضا ١: ٦٤ حيث يخطّئ رواية المسكي.

تحقيق الروايات والأشعار وتدقيقها تمكنا كبيرا . فهو يحقق أسماء الأعلام ويعرّف بهم تعريفا وافيا ويعرف الأماكن ويحقق الحوادث ويحقق الأبيات الشعرية ويرجع نسبتها .

وما كان ذلك ليتأتى له عن طريق الدراسة الرسمية وحدها، على أهميتها، بل لقد كان له من دراسته الذاتيّة المعين الأكبر. فهو دائم الطلب للمعرفة والعلم يرغب "في تتميم الناقص وجمع المتفرّق وضمّ المنتشر المتبدّد"[1] ويتحمّل في سبيل ذلك الارتحال والتنقل من منطقة الى أخرى والابتعاد عن الوطن. وحيثما يحلّ يبحث عن أدباء تلك المنطقة فيتدارس واياهم أمور الأدب ويأخذ منهم ما فاته تحصيله[2]. وكذلك حاله مع أصدقائه، فكلما التقى بهم كان الأدب والشعر محور أحاديثهم، وهو يتذاكر واياهم في الكتب الأدبية وبعض ما جاء فيها ويعلّقون عليها[3]، ويتعاطون قول الشعر ويجيزون الشعر القديم، وهو يسألهم ويجمع منهم ما فاته من الأخبار الأدبية ويروي عنهم الكثير من هذه الأخبار التي لم يظفر بها عن غير طريقهم[4].

---

(١) البدائع ١: ٥.
(٢) انظر مثلا البدائع ٢: ١٩٢ـ١٩٤.
(٣) البدائع ١: ١٥١.
(٤) انظر مثلا البدائع ١: ١٧٦ـ ١٧٨، ٢٤٧، ٢٥٦ـ ٢٥٨، ٢: ١٦٨.

ويبدو لنا ان ولوعه بالقراءة والاطلاع جعله حريصا على اقتناء المصادر، فلا يكاد يسمع بكتاب جديد حتى يسعى جهده للحصول عليه وضمّه الى مكتبته، حتى تكوّنت لديه مكتبة زاخرة كان يستغلّها أفضل استغلال في أبحاثه وتآليفه. وقد احتوت هذه المكتبة المصادر القديمة كالاغاني وطبقات ابن سلّام واليتيمة والذخيرة، بالاضافة الى المؤلفات المعاصرة كدواوين ابن الساعاتي وابن سناء الملك وابن قلاقس وكثير غيرهم، وضمّت المؤلفات الفقهية الى جانب تاريخ الطبري وتاريخ السمعاني وغيرهما من كتب التاريخ.

وكان ابن ظافر يدمن قراءة هذه الكتب ويسجّل ملاحظاته وتعليقاته عليها، تلك التعليقات التي "أفنى في جمعها عمره وقطع في طلبها دهره"(١). وقد تعلّق بمكتبته هذه أشد التعلّق وكان يجد فيها السلوى والعزاء. فبعد أن تقدّم به العمر، دون ان تتحقّق كل آماله، آثر العزلة والانفراد ولاذ بمكتبته التي كانت مبعث الاطمئنان والراحة النفسية، واستعاض برفقة كتبه عن معاشرة الناس. قال(٢):

ولاحٍ لحاني على وحدتي وأطنب في لومه الجاهلُ

---

(١) التشبيهات، الورقة: ٨٤ أ.
(٢) الشهاب الثاقب: ٢٤ـ٢٥.

وقال أما يُوحِشَنْكَ المقامُ وحيدا وأنتَ الفتى العاقلُ

وقد قيل من لازم الانفرادَ مات ولا عنده طائلُ

فقلت له: تُهتَ عما أردتُ وفاتك قصدِيَ يا عاذلُ

وفي كتبٍ لي نعمَ الأنيسُ ونعم المحدّثُ والقائلُ

تَجِدُّ إذا شئتَ جِدَّ الحديثِ وتهزِلُ إن فاتَكَ الهازلُ

وقد تضافرت دراسته وقراءاته مع ما توفّر له من توقّد ذكاء وقوّة ذاكرة وحفظ فمكنته من جمع رصيد هائل من الثقافة الموسوعيّة في الأدب واللغة والفقه والتاريخ تستوقف من يطّلع على كتابه "بدائع البدائة" خاصّة. وان المرء ليدهش من حسن تفاعل هذه الثقافات جميعا في نفسه وتكاملها. فهو كثيرا ما يأتي بتعليقات وشواهد لغويّة تبيّن لنا اقتداره في اللغة وسعة محفوظه منها، وتسعفه في نقد الشعر من الجوانب اللغوية والاخبارية. أما ثقافته الفقهيّة فقد أفادته كثيرا في تحقيق الروايات واسنادها كما أسلفنا. وتستوقفنا رواية في البدائع تبيّن بعض اطلاعه على شيء من أمور الفقه والإفتاء؛ فهو يقول، بعد ذكر قصة الشاعر أبي المخشي عاصم بن زيدون العبّادي، "شاعر الأندلس في زمانه"، مع هشام بن عبد الرحمن الداخل، وتعريضه به في قصيدة مسّا

أدى الى قطع لسانه ، ثم نبت بعد ذلك وتكلّم به : "وعلى ذكر أبي المخشي وقطع لسانه ، كان مالك يفتي فيمن قطع لسانه رجل عمدا يقطع لسانه من غير انتظار ، ثم رجع لما انتهت اليه قصة أبي المخشي وانه نبت لسانه بعد ان قطع بمقدار سنة وانه تكلم به فقال ينتظر سنة، فقد ثبت عندي ان رجلا بالأندلس نبت لسانه بعد ان قطع في نحو هذه المدّة"(١) . وليس أدل على اتقانه لهذا اللون من الثقافة ـ أعني الثقافة الدينيّة ـ من اعتماده مصدرا لرواية الأحاديث النبويّة، فروى عنه القوصي وغيره(٢) .

وأمّا ثقافته التاريخيّة فقد "برع في علم التاريخ وأخبار الملوك، وحفظ في ذلك جملة وافرة"(٢) أهّلته لتأليف الكتب التاريخيّة .

بقيت نقطة أخيرة تستحقّ منا وقفة خاصّة، لأنها تشكّل منعطفا هاما في ثقافة ابن ظافر ، تلك هي اطلاعه على أخبار أهل الأندلس وافريقية اطلاعا وثيقا . ويبدو هذا الاطلاع جليا في بدائع البدائه ، فالروايات عن الأندلسيين كثيرة جدا ، وكأنّ الجزء الثاني من هذا الكتاب مفرد لأخبارهم . وأغلب الظن أن عوامل مختلفة قد تضافرت فأدت الى توجيه أنظاره نحو المغاربة والأندلسيين . ولعلّ في رأس هذه العوامل التقاءه

---

(١) البدائع ١، ٣٧ .
(٢) الفوات ٢، ١٠٧ .

بابن دحية وأخذه عنه ـ وذلك في أول عهد ابن ظافر بالخدمة الملكيّة ـ فرأى رواج بضاعة ابن دحية عند العادل الذي استأدبه لولـيّ عهده الكامل فدعاه طموحه الأدبي أن يتقن هذا اللون من الثقافة الذي يأتي على صاحبه بمثل هذا المردود (١). ولعلّ حماسة ابن دحية وتعصّبه لأدب قومه وروايته لجيّد أشعارهم وغريب أخبارهم، قد أثارت اعجاب ابن ظافر فطفق يجمع هذه الروايات ممن يتسنى له التعرف اليهم من الأندلسيين والمغاربة كالفقيه أبي العرب اسمعيل بن معوشة الكناني السبتي والشيخ الأديب أبي الحسن علي بن خروف القيسي القرطبي والشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي والشيخ أبي عبد الله محمد بن علي اليحصبي القرموني الزّجال وغيرهم كثيرين. وقد أتاحت له علاقته بابن دحية فرصة الالتقاء بالأندلسيين والمغاربة الوافدين الى المشرق والأخذ عنهم. ولعلّ الشك الذي أثير حول وثوقيّة روايات ابن دحية لعب دورا في جعل ابن ظافر يتقصى الاخبار من شتى المصادر.

ثم ان غرابة هذه الاخبار وطرافتها لاقت صدى حسنا في نفس ابن ظافر، وهو يعجب بكل طريف يجري مجرى الملسح (٢)، ويحتاجه لمسامرة الملوك وتسليتهم في مجالس أنسهم. كما ان الشعر الأندلسي استحوذ على

---

(١) انظر مقدّمة المطربة الصفحة: ل*.

(٢) انظر مثلا البدائع ١: ٣٨، ١٥٥، ٢١٩.

اعجابه ، فقول الأعمى التطيلي :

أَســـدٌ ولـو أنّـي أُنـــا قشُـه الحسابَ لقلتُ صَخْـرَهْ

فكأنـــه أســـدُ الســـما ءِ يَمُجُّ مـن فيـهِ المَجَـرَّهْ

ملأه اطرابا وأوسعه اغرابا مما دعاه الى احتذائه في النظم(١)، وقول ابـــن خفاجـــة :

صحَّ الهـوى منك ولكنـني أَعجبُ من بـينٍ لنـا يُقْـدَرُ

كأننـا فـي فلـكٍ دائـــرٍ فأنـت تَخْفـى وأنـا أَظْهَـرُ

هو أحسن ما سمع في مثل هذه الواقعة(٢).

وقد حدت به هذه العوامل جميعا الى بذل جهده في ســـبيل الاحاطة بهذا الأدب المغربي الأندلسي احاطة تامة ــ جريا على عادته في السعي نحو الأكمل والأفضل . فكان يجمع المؤلفات الأندلسية والمغربية حتى تكوّن لديه مكتبـة مغربية أندلسية قيّمة اشتملت على الذخيرة لابن بسّام، ومطمح الأنفس وقلائد العقيان لابن خاقان، والعقد لابن عبد ربه ، والمقتبس لابن حيان وجذوة المقتبس للحميدي، وفرحة الأنفس في أخبار أهـــــل

---

(١) البدائع ١: ٢٣٣ .
(٢) البدائع ١: ٢٤٠ .

الأندلس لمحمد بن أيوب الغرناطي، وسقيط الدرر ولقيط الزهر[1] للوزير ابن اللبانة الدّاني، والحديقة والرسالة لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز، والأنموذج والعمدة لابن رشيق، وأبكار الأفكار لابن شرف. هذا بالاضافة الى الدواوين الشعرية كديوان ابن حمديس وديوان ابن خفاجة، والى المجاميع التي تضمّ أخبار المغاربة والأندلسيين.

ولعلّه قد تمرّس بدراسة هذا الأدب وتعمّق حتى أصبح حجّة من حججه وراوية من رواته[2]، وبات هذا الأدب ميدان اختصاصه لدرجة أنه أفرد كتابا خاصا أسماه "نفائس الذخيرة" يحصي فيه هذه النفائس ويقوّمها، الا أنه توفي ولما يكمل الكتاب، " ولو كمل ما كان في الأدب مثله "[3].

هذا هو الرصيد الثقافي الذي وعاه ابن ظافر، ولا شك أنه أسهم اسهاما كبيرا في تكوين ذوقه الأدبي واتجاهاته الفنية: النقديّة والشعرية.

ابن ظافر في مجال الشعر والنقد

لو جاز لنا ان نكوّن رأيا في ابن ظافر الأديب الشاعر والناقد، من خلال التعليقات القليلة والأبيات المتفرّقة التي بثّها في التشبيهات

---

(١) يسميه ابن ظافر تكرارا في البدائع بـ "سقط الدرر ولقط الزهر".
(٢) أنظر البدائع ٢: ٤٥، ١٣٩، ١٤٢.
(٣) الفوات ٢: ١٠٧.

وبدائع البدائه"، لكان أول ما يلفتنا هو أنه ابن عصره في كل ما صدر عنه من نثر وشعر ونقد . فلقد اتبع في كتابته أسلوب النثر المسجوع الذي شاع في عصره ونسج على منواله جميع معاصريه ، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني . وللسجع عنده مقام رفيع ، فهو ينبّه في مقدمة "بدائع البدائه " الى أن الحكايات المسجوعة في هذا الكتاب ـ ومعظمها كذلك ـ "سجعها ما وشى خاطري وشائعه وأبدى بدائعه"[1] . وهذه "البدائع" المسجوعة غالبا ما تقوم على التشبيه : فتبادل الحديث هو : "اجتناء زهر المحادثة واقتناء درر المنافثة"، والمغني "ان بدا فالشمس طالعة وان شدا فالورقاء ساجعة"، والصبيّ الوضيء "نهب وجهُه وشعره من البدر نوره ومن الليل دجوره ، واغتصب طرفه وعطفه من الظبي كحله ومن الغصن تميّله " ، والملك الكامل: "... ملكا الا انه بشر ، وأسدا الا أنه قمر ، وبحرا بيد انه يسطو من سيفه بنهر"، والمماليك "كأنهم الأقمار الزواهر في ملابس كرياض ذات أزاهر" . والتشخيص عنصر أساسي في وصف الطبيعة: فالشمس تموت وتدفن والظلام حداد عليها ، والليل زنجي يتحلّى بخلخاله ، والروض تتثنى قامات أشجاره وتتغنى قينات أطياره، ويبتسم محياه وتشي بأسرار محاسنه ريّاه ، والنسيم يعانق قامات الغصون

---

(١) البدائع ١: ٤.

ويغصبها مباسم نورها ويقبّلها، والشمس تشمّر للمغيب الذيل وتصفرّ خوفا من هجوم الليل، والهلال في حمرة الشفق كحاجب الشائب، والليلة أظلم من قلب الكافر وأشد سوادا من طرف الظبي النافر، والزّهر ينظم جواهره في أجياد الغصون، والنبت يخضرّ شاربه وعارضه ويصقل النسيم درع النهر، ودولاب الماء يئن ويتوجّع ويرجع النوح ويئن أنين أهل الأشواق ويفيض ماء أغزر من دموع العشاق، والساقية تخفق خفقان قلب الجبان، وهكذا. ومهما تكن الأصول المشرقية لهذه الطريقة النثرية في الأسلوب والتصوير فان الأستاذ المباشر الذى تأثر ابن ظافر خطاه في هذه السبيل هو الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ومطمح الأنفس، فان إحاطة كل قصة بجو طبيعي، هي طريقة الفتح نفسه، ومما يشير الى الاحتذاء الدقيق أن ابن ظافر يأخذ بعض قصص الفتح بن خاقان نفسها ثم يعيد صياغتها محاولا أن يتفوق عليه في الاسهاب ومراعاة الدقائق التفصيلية.

كذلك حاله في النقد والشعر، فلقد تبنى الطريقة الشعرية التي تعتمد التشبيه أساسا والتجديد فيه مقياسا للجودة والابداع، وابن ظافر يعتبر "فنّ التشبيه بين الأشعار عالي القدر نابه الذّكر، لا يمكن كل الناس سلوك جادّته ولا يقدر الا اليسير منهم على إجادته، حتى استهوله اكثر الشعراء واستصعبه وأبى بعضهم أن يجهد بأن يروّض مصعبه، وقالوا:

اذا قال الشاعر كأن ظهر فضله أو جهله"[1]. ومن هنا فهو، في نقده للشعر، يعتمد على "جودة" التشبيه الذى جاء به الشاعر، مهما كان الموضوع؛ بل ان التشبيه موضوع قائم بذاته ويقصد لذاته، ويشكّل المسوّغ الأكبر للنظم في كثير من الحالات.

وحين نرصد ملاحظات ابن ظافر النقديّة التي يحكم فيها على الشاعر بالإجادة أو التقصير نتبيّن أنه يعتمد مقياسين لإصدار هذه الأحكام: أولهما أن يكون المعنى جديدا غريبا غير متداول لم يسبقه أحد اليه، وثانيهما أن يكون المشبّه به مطابقا لأحوال المشبّه لا يخالفه في أي من صفاته، والا حكم على الشاعر بالتقصير. ومن أجل أن نوضح قولنا هذا نستشهد برأيه في المفاضلة بين الأبيات التالية لابن المنجم والأعز ابن قلاقس. قال ابن المنجم:

وعشاءٍ كأنما الأُفْقُ فيه ... لازوردٌ مرصّع بنُضارِ
قلتُ لما دنتْ لمغربِها الشمسُ ولاح الهلالُ للنُظّارِ
أقرضَ الشرقُ صنوهَ الغربَ دينارا فأعطاه الرهنَ نصفَ سوارِ

وقال ابن قلاقس:

(١) التشبيهات، الورقة: ٦ أ.

لا تظن الظلامَ قد أخذ الشمسَ وأعطى النهارَ هذا الهلالا

إنما الشرقُ أقرضَ الغربَ دينارا فأعطاه رهنَه خَلْخالا

فكان تعليقه : "وقطعة ابن المنجّم أحسن من قطعة الأعز لتنصيفه السوار، وعلى كل حال فقد أبدعا ولم يتركا للزيادة في الإحسان موضعا"[1]، ذلك أن نصف السوار أقرب شكلا وأكثر مطابقة للهلال من الخلخال الكامل . ولهذا السبب نفسه يعتبر أن السريّ الموصلي أجاد في قوله :

ولاحَ لنا الهلال كشطرِ طوقٍ على لَبّاتِ زرقاءِ اللِّباسِ

"وقد أرى في هذا على قول ابن المعتز"[2]:

وكأن الهلالَ طوقُ عروسٍ تتجلّى على غلائلَ سودِ

فشطر الطوق أشبه بالهلال من الطوق الكامل، واللباس الأزرق أكثر مطابقة لصفة السماء من الغلائل السود .

وبكلمة أخرى، يعلّق ابن ظافر أهمية كبيرة على الدقّة في التشبيهات ووضوح الألفاظ الدّالة عليها، فرأيه في قول ابن حمديس:

نثرَ الجوُّ على التُّربِ بَرَدْ أيُّ دُرٍّ لنُحورٍ لو جَمَدْ

---

(١) البدائع ١: ٢٣٢ .
(٢) التشبيهات، الورقة : ٩ ب .

أن المعنى قد تناقض "بقوله البرد وقوله لو جمد، اذ ليس البرد الا ما جمّده البرد، اللهم الا ان يريد بقوله لو جمد لو دام جموده فيصح ويبعد عن التحقيق"[١].

وابن ظافر، في منهجه النقدي هذا، يساير معاصريه، فهم يطلبون الدّقة والتحديد، فصديقه القاضي ابن النبيه يأخذ على الطغرائي قوله:

هذا هلالُ العيدِ قد جاءنا بمنجلٍ يحصدُ شهرَ الصّيامْ

ورأيه أنه "لو شبّهه بمنجل ذهب يحصد نرجس النجوم لكان أولى"[٢]، فقام ابن ظافر بأخذ هذا المعنى والزيادة عليه "زيادتين بديعتين يدركهما الناقد البصير"[٣] حيث قال:

أما ترى الهلالَ يخفي أنجمَ الأُفْقِ بنورِ وجههِ الوسيمِ
كمنجلٍ من ذهبٍ يحصدُ من روضِ الظلامِ نرجسَ النجومِ

ويخبره ابن سناء الملك أنه يأخذ على الناشئ الأصغر قوله:

ووردةٍ في بنانِ معطارِ حيّا بها في خَفِيِّ إسرارِ
كأنها وجنةُ الحبيبِ وقد نقّطها عاشقٌ بدينارِ

---

(١) البدائع ١: ٦٥.
(٢) البدائع ١: ١٧٨.
(٣) البدائع ١: ١٧٩.

لأن "تشبيه الصفرة بالدينار فيه بعض تقصير لا يدركه الا الناقد البصير، ولو قال: كمثل وجنة خود قد نقّطت برباع، لكان أخصر وأحسن"[1].

وعلى الشاعر أن يكون مجدّدا في تشبيهاته، فمقياس الابداع، كما قدّمنا، أن يكون التشبيه مبتكرا غير مبتذل لم يسبق اليه. ومن هنا بات النقّاد ــ ومن جملتهم ابن ظافر ــ يتصدّون لكل بيت فيعيدونه الى الأصل الذى احتذاه شاعره، فاذا تفوّق الشاعر على قول من سبقه حكموا له بالجودة واستحسنوا قوله، واذا كان البيت "إعادة صياغة" للقول المحتذى وصموه بالتقصير. وطريقة ابن ظافر في هذا جليّة واضحة، فهو يورد بيتا ويصفه بالجودة مثلا، ثم يسرد الأبيات التي استوحاها الشعراء من البيت المذكور قائلا: "وأخذ هذا المعنى ... وزاد عليه"، او و"أخذه ... وقصّر"، أو "قال ..." ثم "وأجود منه قول ... وان كان مأخوذا منه". وقد أوردنا نموذجا من طريقته هذه حين أثبتنا تعليقاته على قصيدة ابن شهيد، في معرض الحديث عن "نفائس الذخيرة". ونذكر هنا أن "عجائب التشبيهات" يكاد يكون مبنيا على هذه الطريقة.

وما دامت هذه هي نظرة ابن ظافر النقدية، فمن الطبيعي أن يلتزم بهذه المقاييس حين ينظم هو الشعر، فيحاول أن يأتي بمعان مبتكرة

---

(١) البدائع ١: ١٠١.

لم يسبقه اليها أحد . وحتى يتسنى له ذلك كان يصنع القطعة ويديم النظر فيها فيزيد على معناها حينا ويختصرها حينا آخر الى أن يرضى عنها[1] .

وكان اذا استحسن بيتا يأخذ معناه وينظمه ، كما في أبيات الأعمى التطيلي في أسد النحاس، فانه ولّد منها معنى في صفة الدولاب ، فقال[2]:

ودولابٍ يَئِنُّ أنينَ ثكلى ولا فقدا شكاه ولا مَضَرَّه

ترى الأزهار في ضحك إذا ما بكى بدموع عينٍ منه ثَرَّه

حكى فلكا تدور به نجوم تؤثر في سرائرنا مسرّه

يظلّ النجم يغرب بعد نجم ويطلع بعدما تجري المجرّه

ونكاد نقول ان ابن ظافر شاعر تشبيه فحسب، فهو ينظم في كلّ ما يقع عليه نظره من الهلال والنجوم الى الرياض والبرك والأنهار والأزهار والنباتات بأنواعها، كما ينظم في الشمعة والمنارة وصحن الجامع الى غير ذلك من الموضوعات، وغايته أن يأتي بتشبيه مستحسن . وهو يتصيّد هذه التشبيهات ويتعمّدها ويحاول أن يأتي بمعان غريبة لا يظن أنه سبق اليها[3] كما في قوله :

---

(١) البدائع ١: ٢٥٦ـ٢٥٧ .
(٢) البدائع ١: ٢٣٣ـ٢٣٤ .
(٣) التشبيهات ، الورقة : ١٥ أ .

والليلُ فرعٌ بالكواكبِ شائبٌ فيه مجرَّتُه كمثلِ المفرقِ
ولربما يأتي الهلالُ ببحرِه متصيّدًا حوتَ النجومِ بزورقِ
حتى إذا هبَّتْ على الماءِ الصَّبا وألاحَ نورَ تمامِه بالمشرقِ
أبدى لنا علمًا بهيجًا مُذْهَبا قد لاح في تجعيدِ كمٍّ أزرقِ
وحكى برادةَ عسجدٍ قد قامَ صائغُها يؤلِّفُ بينَها بالزِّئبقِ

نكاد نقول ان حظ ابن ظافر من الشعر مقتصر على هذا اللون من النّظم، يتعمّده في مدحه أيضا، فالقصيدة التي قدّم بها كتاب التشبيهات مادحا الملك الافضل قد "أودعتها نوعا من جنس ما أودعته فيه من غريب التشبيه"(١)، ويكاد لا يخلو بيت فيها من: "كأن"، "مثل"، "الكاف"، "حكت"، أو لونا من ألوان الاستعارة، وكذلك الحال في القصيدة التي نظمها بناء على طلب الملك العادل، نكاد نقول بذلك، لولا قطع أربع وردت له في "الشهاب الثاقب" تدور حول فضل العزلة والانفراد. وشعره فيها جميعا بسيط سهل لا تشبيه فيه، ولا طرافة خاطر أو جدّة فكرة، بل هو نظم بسيط لأفكار عاديّة، كمثل قوله:

ألعزُّ في العزلةِ مكنونُ والذّلُّ في البذلةِ مدفونُ
فإن تُردْ عزًّا فكن أعزلا أو لا فأنتَ الرجلُ الهونُ

(١) التشبيهات، الورقة: ٢ ب.

أو قولـه :

وطفت جلّ البـلاد أبغـــي أخا سـليم الوداد هـــادي

فلم أصـادف سـوى لئـــيم وغـد بعيـد عـن الرشـــادِ

يعـش لي إن رأى روائـــي ويُضمـر البغض في الفـؤادِ

ويحسن القول فـي اقترابـــي ويأتـي بالغش في ابتعـادي

يحـزن للخـير ان رعـانـي ويفـرح القلـــب للفســـادِ

وهذا شعـر سهل لا يعتمد على الصور ، ولهـذا يفترق عن سائر ما عرفناه من شعر ابن ظافر .

غير أننا نظلمه ان أخذنا هذه القطع وحدها مقياسا للحكـم عليه كشاعر ، فشعره الذى اهتم به هو شعر التشبيه السائد في العصر . وقد كان رأي معاصريه في شعره هذا حسنا ، فالوزير صفي الدين وأهـــل حلقته يعجبون بما ينظم ، وأصحابه يستحسنون تشبيهاته ويثنون عليهـــا ، والملك العادل يتأثر بشعره لدرجة أن تغرورق عيناه بالدموع ، والملـــك الأشرف يغدق عليه العطايا اعجابا بهذا الشعر . وهـو معتد به يذكر دائما التجديدات التي ابتكرها ولم يسبق اليها . ولعلّه ليس من قبيـــل المصادفة ان ينهي كتابه "بدائع البدائه" بقصيدة لابن المؤيـد يمدحـــه

فيها ويطري شعره بقولـه :

قد أتتني من الجمالِ قصيدٌ يا لها من قصيدةٍ غـرّاءِ
جمعتْ رقّةَ الهواءِ وطيبَ المسكِ في سبكِها وصفوَ الماءِ
سيدي هل جمعتَ فيها اللآلي يا أخا المجدِ أم نجومَ السماءِ
أفحَمْتَني حُسنا وحقِّ أياديك التي لا تُعَدُّ بالإحصاءِ
فتركتُ الجوابَ واللهِ عجزًا فابسطِ العذرَ فيه يا مولائي
هل يسامي الثريا الثرى وأنّى يبلغُ النجمُ فرطَ نورِ الذكاءِ

ولعل حكمنا على شعر ابن ظافر ان يكون أدق، لو وصلتنا مجموعة متنوعة الأغراض من شعره . ولكن ابن ظافر، على اى حال، وقع ضحية الافتتان بالبديهة، لاقتداره عليها في دور مبكر من حياته ، وشعر البديهة، مهما ينل من الاعجاب الفورى، لا يمثل الا نوعا من القدرة الصناعية التي أحكمت بالدربة والمران، وهو ينطوى في حقيقته على نوع من السطحية، لا تلبث ان تجعله أقل قيمة من الشعر القائم على التروي. وقد ركن ابن ظافر الى إعجاب معاصريه بتلك القدرة فاستكثر من المقطعات التي قالها على البديهة، غير أننا لو دققنا النظر لوجدنا اكثر ذلك الاعجاب مصروفا الى "العملية السريعة"

التي يتم بها النظم، وتلك العملية ليست جزءًا هامًا في تقدير ذلك الشعر عند غير المعاصرين الشاهدين لما تستطيعه البديهة من الهجوم البارع على أوائل الخواطر العارضة. على أني لا أعتقد أن شعر ابن ظافر كله يمثل هذا اللون، ولكنه اللون الغالب الذى حداه الى تأليف كتابه "بدائع البدائه" .

٥٠ مؤلفاتـــه

لـه عـدّة تصانيـف منهـا :

١) أخبار الشجعان: ذكره ياقوت وابن شاكر والسخاوى (الاعلان: ٥٥٠، ٥٨١)، وقال بروكلمان: هو في المتحف البريطاني رقم ٥٥٠ وليبسك رقم ١٩١١.

٢) أخبار الملوك السلجوقية: هكذا سمّاه ابن شاكر والسخاوى (الاعلان: ٥٤٩)، وسماه ياقوت أخبار السلجوقية.

٣) مكرمات الكتّاب : انفرد ياقوت بذكره .

٤) من أصيب بمن اسمه علي: ذكر في الفوات والمعجم، وقد ابتدأ بعلي بن أبي طالب. وسمّاه ابن شاكر : "كتاب من أصيب" .

٥) أساس السياسة : ذكر في الفوات والمعجم .

٦) أساس البلاغة: ذكره بروكلمان اعتمادا على السخاوى (الاعلان : ٥٥٠).

٧) الدول المنقطعة: ويقع في أربعة أجزاء . أرّخ فيه للدول الحمدانية والساجية والطولونية والاخشيدية والفاطمية والعباسية حتى سنة ٦٢٢ . قال ابن شاكر: "وهو كتاب مفيد جدا في بابه "، وقد ذكره

السخاوى (الاعلان بالتوبيخ : ٥٥٠). نقل عنه ابن خلكان في ترجمة ابن الحطيئة اللخمي (١: ٩٦ ط. وستنفلد) وترجمة باديس الصنهاجي (٢: ٤) وترجمة الملك الافضل (٣: ١٠٨) وترجمة عبد الله بن طباطبا (٤: ٣٥). ومن الغريب ان ابن خلكان الذى ينقل عن ابن ظافر لم يدرج ترجمته في كتابه ، ولهذا استدركها ابن شاكر في الفوات ، وبعض هذا الكتاب محفوظ بالمتحف البريطاني، ومنه صورة شمسية بدار الكتب المصرية (رقم ٩٠ ٨ تاريخ)

وقد طبع وستنفلد منه جزءا من مخطوطة غوطا رقم ٢٤٥ بعنوان:
Die Statthalter von Agypten Zur Zeit der Chalifen.

٨) شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل: ذكره المقرى[١] في "نفح الطيب" دون نسبة، وسماه حاجي خليفة[٢] "شفاء العليل" (بالعين المهملة) ولم يعيّن المؤلف. وقد اختصره جلال الدين السيوطي في ثلاثة كراريس وسماه " الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب"[٣].

وقد قسّم ابن ظافر كتابه هذا الى ثمانية أبواب على الشكل التالي :

الباب الأول في فضل العزلة .

---

(١) نفح الطيب ١: ٧٢ .
(٢) كشف الظنون ٢: ١٠٥١، ١٠٦٨ .
(٣) نشر "الشهاب الثاقب" في دمشق عام ١٣٦٨ بتحقيق أحمد عبيد .

الباب الثاني في أن الصديق غير موجود ٠

الباب الثالث في وجوب الاحتراس من الناس ٠

الباب الرابع في ذمّ الأصحاب والأخلاء، وما ينطوون عليه من المضرة والبلاء ٠

الباب الخامس في وصف أهل الزمان والوقت، وما عندهم من الشرّ والمقت ٠

الباب السادس في ان الكلاب خير من كثير ممن يلبسون الثياب

الباب السابع في آداب العشرة ان كان لا بدّ منها ٠

الباب الثامن في صفات الذين يصادقون ٠

وافتتح معظم هذه الأبواب بايراد حديث شريف حول الموضوع، يتلوه قول أو أكثر لعلي بن أبي طالب، ثم أقوال بعض الحكماء، يلي ذلك أبيات أو مقطوعات شعريّة تناسب المقام ٠

ونحن نستبعد ان يكون ابن ظافر قد ألف هذا الكتاب قبل اعتزاله العمل الرّسمي، بل نرجح أنه وضعه في آخر أيامه حين "أراد السلامة والاستئناد" وآثر "الوحدة والانفراد"[1]، وبعد ان طاف جل البلاد يبغي أخا سليم الوداد، فلم يصادف سوى لئيم يضمر له

(١) الشهاب الثاقب، ٦١ ٠

البغض.[1] ولعلّه تأثر بالمكايد والدسائس التي كانت تحاك في بـــلاط العادل والكامل للايقاع بالصاحب صفي الدين وابن دحية، ولعلّه كان ضحيّة وشاية مثل هذه الوشايات، وكانت الإصابة على يد من ظنه صديقا وفيا فأدى ذلك به الى العزلة وسوء الظن بجميع الناس. وقد تقـــدّم الحديث عن علاقته بأصدقائه ووفائه لهم ومبادلته هذا الوفاء بوفاء من جانبهم. الا أنه يبدو لنا أن الصدمة التي أدت به الى تأليف هـــذا الكتاب كانت كبيرة نسي معها حظّه من إخلاص الأصدقاء وقلقهم عليه، بل لقد قال:[2]

لم يبقَ في الناسِ من يُرجى لمكرمةٍ كلاّ ولا من له ظلٌّ ولا أُزُرُ
قد استوى الناسُ حتى ما ترى أحداً إلا وفيه على إخوانه ضـررُ
فجانبِ الناسَ واحذرْهم وكن رجلاً لم يرضِهِ منهم أنثى ولا ذكرُ
ولا يغرَّنكَ أثـوابٌ وأَشْـــيِرَةٌ فكلّ من/[قد] تراه يا أخي بقـرُ
إن يسمعوا الخيرَ يُخفوه وإن سمعوا شرا أذاعوا وإن لم يسمعوا ابتكروا
فابعدْ وكن مفرداً في رأس شاهقةٍ لا مؤنسًا لك إلا الهمُّ والفِكَرُ

---

(١) الشهاب الثاقب: ٣٢.
(٢) الشهاب الثاقب: ٣٣ـ٣٤.

٩) نفائس الذخيرة : ذكره ابن شاكر وقال:[١] "ولم يكمل، ولو كمل ما كان في الأدب مثله" . وذكره الصفدي[٢] في ترجمة ابن زيدون وقال انه أورد فيه رسالة ابن زيدون الجدية والقصيدة المتعلقة بها كاملتين، وهي القصيدة التي مطلعها :

الهَوى في طلوعِ تلك النجومِ والمنى في هبوبِ ذاك النسيمِ

كما أورد الصفدى[٣] تعليقات نقديّة لابن ظافر ، على قصيدة لابن شهيد ، نرجح أنه اقتبسها من هذا الكتاب نفسه. واذا كانت هذه التعليقات ممثّلة للمنهج الذى احتذاه ابن ظافر في "نفائس الذخيرة" فيبدو لنا أن طريقته في هذا الكتاب مشابهة للطريقة التي اتبعها في "عجائب التشبيهات" بمعنى أنه اهتم بجودة التشبيه أو تقصير الشاعر فيه ، كما اهتم بتبيان "المصدر" الذى أخذ الشاعر قوله منه ، وهل زاد على "المعنى الأول " وفاقه أو قصّر عنه . فقول ابن شهيد :

وتكادستْ فيها الأبارقُ وهي قاذفةُ الحلاقمْ

فكأنها عضبٌ رعفنَ فثرنَ داميةَ الخياشمْ

---

(١) الفوات ٢: ١٠٧ .
(٢) الوافي ٧: الورقة ٤٣ أ ، الترجمة رقم (٣٠٣١).
(٣) الوافي ٧: الورقة ٧١ب ـ ٧٢ أ ، الترجمة رقم (٣٠٧٨).

"مأخوذ من قول أبي اسحق الصابي[1]":

عـروسُ كرمٍ صفتْ وطابـت لونـًا وطعمـا فمـا تُعـافُ
كأنّ إبريقَهـا لديهـمْ ناكسُ رأسٍ بـه رُعـافُ

وقولـه:

وترنّمَـتْ فيـه القيـانُ لنـا ورجّعـتِ النـواعـمْ
قُمنـا نصفّـق بالأكـفِّ لها ونرقـصُ بالجماجـمْ

"أخذه من أبي عثمان النّاجم وقصّر عنـه في قولـه":

تأتـي أغـانـي عاتـبٍ أبـدًا بأفـراحِ النفـوسْ
تشـدو فنزمـرُ بالكـؤوسِ لها ونرقـصُ بالـرؤوسْ

وقولـه:

وأغـرَّ قـد لبـسَ الـدّجى بـردًا فراقَك وهو فاحـمْ
يحكي بغُـرّتـِـه هـلالَ الفطـرِ لاح لمبصِرٍ صائـمْ
وكأنمـا خـاض الصبـاحَ فجـاء مبيـضَّ القـوادمْ

---

(١) الكلام بين الأقواس هو التعليقات التي أوردها الصفدي مسبوقة بـ: "قال جمال الدين علي بن ظافر" في كل مرّة. (انظر الوافـي ٧: الورقة ٧١ب ـ ٧٢ أ).

"أخذه من قول ابن نباتة وقصّر عنه ":

وكأنّما لطمَ الصباحُ جبينَهُ فاقتصَّ منه فخاضَ في أحشائِهِ

وقوله :

وكأنّما أوراقُها مسوَدَّةً أقلامُ عالِمْ

"أخذه من قول عديّ بن الرّقاع " :

تُزجي أَغَنَّ كأنّ إبرةَ روقِهِ قلمٌ أصابَ من الدَّواةِ مِدادَها

قال الصفدى: "وزاد ابن ظافر في مؤاخذته في هذه القصيدة وفي ما أوردته كفاية" .

ولعلّ ابن ظافر قد تناول مجموعة من قصائد "الذخيرة " وقام "بتحليلها ونقدها " على هذا المنوال مبيّنا إبداع التشبيه ومحاسنه أو " مؤاخذاته " عليه. وقد سبق أن رجّحنا أنه ألف هذا الكتاب في فترة زمنيّة متأخرة بعد ان تعرّف بابن دحية وأخذ عنه ، فمال الى الأدب الأندلسي والبحث فيه .

١٠) أخبار الدول الاسلامية : ذكره السخاوى (الاعلان: ٤١٤) ونسبه للجمال أبي الحسن علي بن ظافر بن حسين الأزدى المصرى، وهو هذا الذى نتحدث عنه ، وأورد من مقدّمة الكتاب الفقرة التالية التي تبين أهمية

علم التاريخ : "وانه لو لم يكن من فوائده غير وعظه بأن الدهر لا يبقى على حالة ولا يلزم من أخلاقه الاستحالة لكان كافيا ولغرض المتأمل شافيا، فكيف وفوائده لا تحصى وفرائده لا تستقصى والناظر فيه جامع بين عبرة تسلبها عبرة وفرحة تنيلها منحة". قال السخاوى: ثم عدّ الدول وأطال في الإشارة اليها . وهذه المقدمة لم ترد في نسخة روما من كتاب الدول المنقطعة كما أشار الى ذلك الاستاذ روزنتال في تعليقاته على الاعلان بالتوبيخ (١) . ثم ذكر السخاوى هذا الكتاب مرة أخرى ونسبه لظافر بن حسن الأزدى، ولا نعرف أحدا بهذا الاسم، ويبدو أن هنا اضطرابا، وأن النسبة الصحيحة هي حيث ذكر الكتاب أول مرة .

(١١) بدائع البدائه : جمع فيه ابن ظافر "بدائع" الشعر الذى قيل على البديهة، وقد قسّم هذا الكتاب في خمسة أبواب كما يلي :

الباب الأول في بدائع بدائه الأجوبة .

الباب الثاني في بدائع بدائه الاجازة .

الباب الثالث في بدائع بدائه التمليط .

الباب الرابع في بدائع بدائه الاجتماع على العمل في مقصود واحد .

(١) انظر الحاشية ١٥٠ ص ٤١٤ من علم التاريخ عند المسلمين .

الباب الخامس في بقيّة بدائع البدائه ٠

وقدّم قبل سياقة هذه الابواب فصلين، أحدهما في البديهة والارتجال، والثاني في الفرق بينهما ٠

ورتّب الأخبار في كل باب على ترتيب الأعصار، مبتدئا من العصر الجاهلي حتى وقته الحاضر، والتزم هذا الترتيب الزمني التزاما صارما الا "ما يقتضي تقديمه فرط مشابهة ومشاكلة، وزيادة مقاربة ومماثلة"٠

وقد نحا ابن ظافر في هذا الكتاب المنحى السائد في عصره فاهتم بايراد أسانيد الرّوايات كاملة وذكر المصادر التي استقى منها أخباره، كما اهتم بتدقيق الروايات ومعارضتها بعضها ببعض وترجيح احداها ٠

ويبدو أن هذا الكتاب كان من أهم أسباب شهرة ابن ظافر الأدبية، فلقد قدّم أول صورة منه للقاضي الفاضل سنة ٥٨٧ وهي يومئذ لا تعدو "عشرة كراريس لطاف"، فأعجب به وشجّعه على الاستزادة من هذه البدائع، ثم حين اتصل بالملك الأشرف سنة ٦٠٣ "جرى في مجلسه ذكر هذا الجزء، فحسن من خاطره موضعه وجلّ عنده موقعه فرسم لي نقله"(١)، ففعل وأضاف الى هذه النسخة جزءا جديدا قارب حجمه حجم الجزء الأول، ثم بعد انفصاله من خدمة الأشرف وعودته الى مصر، ألف نسخة ثالثة "مزيدة ومنقّحة" ضمّ فيها "جميع ما حصله من بدائع البدائه أولا

---

(١) البدائع ١: ٤٠

وفرطاء وآخرا ووسطا"، "وقد عقدته عقدا لا يعقبه فسخ، ونظمته نظما محكما لا يعروه نسخ"[1]، وقدّم هذه النسخة الأخيرة التي عقد العزم على ألا يجرى فيها اى تغيير من بعده، الى الملك الكامل في حدود سنة ٦١٢ أو ٦١٣.

وهذا يكسب الكتاب قيمة خاصة لأنه جمع فيه الكثير من أخبار أدباء عصره في مدى خمس وعشرين سنة. ولعلّه من أهم المصادر لمن يريد أن يطّلع على الحركة الأدبية في العصر الأيوبي.

وقد طبع هذا الكتاب في بولاق سنة ١٢٧٨ ثم طبع على هامش "معاهد التنصيص"، سنة ١٣١٦.

١٢) ذيل بدائع البدائه: ذكر في الفوات وكشف الظنون. وقد ذكر ابن ظافر في ختام بدائع البدائه أنه سيدرج كل ما يتجمع لديه من هذا الفن في كتاب ملحق مستقل عن بدائع البدائه، ولكني لا أدرى هل وفى بذلك أو حالت دونه حوائل.

١٣) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات: وسأتحدث عنه في الفقرة التالية.

---

(١) البدائع ٢: ٢١٤.

٦٠ كتب التشبيهات قبل ابن ظافر

عرف النقد العربي الاهتمام بالتشبيه في دور مبكر، ولهذا أقبل بعض المؤلفين على استيعاب الأبيات القائمة على التشبيه في مؤلفات خاصّة بها. وقد ذكرت المصادر التي بين أيدينا بعضا من هذه المصنفات المخصصة للتشبيهات، وأقدمها تشبيهات ابن أبي عون (وفاته ٣٢٢) وتشبيهات حمزة بن الحسن الأصفهاني[١] (وفاته ٣٦٠)، وقد وصلنا أولهما فقط. وبعد حوالي القرن اهتمّ أبو سعد نصر بن يعقوب[٢] بهذا الموضوع فصنّف فيه كتاب "ثمار الأنس في تشبيهات الفرس"، وكتاب "روائع التوجيهات من بدائع التشبيهات". وقد قدّم كتابه الأخير للصاحب بن عبّاد الذى أعجب به أيما اعجاب، فهو يردّ عليه قائلا: "... فأما كتاب التشبيهات فقد فرعت به كافّة الأشباه، وأنبهت على من سبقك كلّ الانباه، اذ تعاطاه ابن أبي عون فلم يطاول يدك، وحمزة بن الحسن فلم يبلغ أمدك، وهذان شيخان مقدّمان وفحلان مقرمان. وما ظنّك بكتاب نفّرته على نظائره، وصار ألزم لمجلسي من مساوره..." . وقوله هذا دليل جديد على اهتمام العصر بالتشبيه وكتبه، كما ان صاحب اليتيمة كثيرا ما

---

(١) أنظر انباه الرواة ١: ٣٣٥، ومجمع الامثال ١: ٤، والفهرست : ١٣٩ .
(٢) انظر اليتيمة ٤: ٣٨٩ـ٣٩٠.

يفرد مواضع معيّنة لإيراد ملح من شعر بعض الشعراء في الأوصاف والتشبيهات.

وقد أدلى الأندلسيون بدلوهم في هذا المجال أيضاً، ولعل أقدم ما ألّفوه في التشبيهات كان كتاب معارضة تشبيهات ابن أبي عون، وقد ورد ذكره في آخر احدى النسخ التي اعتمدها محمد عبد المعيد خان في تحقيق تشبيهات ابن ابي عون. قال الناسخ: "وهذه التشبيهات المشرقية قد عورضت بتشبيهات مغربية أندلسية لا ترجع عنها والتمسها ففيها ان شاء الله كمال الفائدة"(١). ولكني لست أدري الى أية مجموعة أندلسية يشير هذا الناسخ.

وقد ذكرت المصادر ثلاثة مؤلفات أندلسية خصّصت لهذا الموضوع(٢). ففي النصف الأول من القرن الخامس نشط أندلسيّان لهذه المهمة فصنّف أبو عبد الله محمد بن الكتّاني (وفاته ٤٢٠) كتاب "التشبيهات من أشعار أهل الأندلس"، وألف أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين (وفاته في حدود ٤٣٠) كتاب "الفرائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية". وبعد أكثر من قرن جاء أبو عامر السالمي محمد بن أحمد بن عامر (وفاته ٥٥٩) فألف كتاب "حلية اللسان وبغية الانسان في الأوصاف والتشبيهات والأشعار السائرات".

---

(١) وتاريخ الانتهاء من كتابة هذه النسخة هو سنة ٤٦٦. انظر تشبيهات ابن أبي عون، مقدّمة المحقق، الصفحة xvii.

(٢) من أجل تعريف أوفى بهذه الكتب ومؤلفيها، أنظر تشبيهات ابن الكتاني، مقدّمة المحقق، ١٢ــ١٣.

ولم يصلنا من هذه المصنّفات الأندلسية سوى كتاب ابن الكتّاني .

وسأعرض فيما يلي تشبيهات ابن ابي عون وتشبيهات ابن الكتاني، وهما الكتابان الوحيدان اللذان تيسّر لي الاطلاع عليهما .

أ . تشبيهات ابن أبي عون:

عرف أبو اسحق ابراهيم بن احمد بن حبيب بن عيسى المنجم بولائه لابن الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر اذ كان يغلو في أمره ويؤلّهه، وقد حجبت هذه الناحية فيه توفره على التأليف في النواحي الأدبية وغيرها، ومع ان ابن النديم وصفه بأنه كان ناقص العقل فانه ذكر له عدّة من الكتب منها ما يتعلق بأخبار البلدان والدواوين ومنها ما ينتحل صبغة أدبية (١).

وقد كان كتاب التشبيهات بين مؤلفاته أحد الأعمدة الثلاثة التي حاول ان يبني عليها عالم الشعر كله واعدا بأنه سيؤلف كتابين آخرين أحدهما في الأمثال السائرة والآخر في الاستعارة، اذ كان يعتقد ان الشعر لا يتعدى هذه الأركان الثلاثة . وقد حفظت الأيام كتاب التشبيهات، ولكنا لا ندري ما فعلت بالكتابين الآخرين، أو ما فعله ابن أبي عون نفسه فيهما.

وحين كتب ابن أبي عون كتاب التشبيهات لم يكن لديه أي منهج

---

(١) الفهرست : ١٤٧ .

منظّم لايرادها، فبعد أن قدّم بمقدّمة في قيمة التشبيه وأورد نماذج من التشبيهات القرآنية، تحدّث عن أدوات التشبيه نفسه، ومنها كأن وكمن والكاف ومثل وكما ... الخ. ثمّ أخذ في ايراد التشبيهات حسب الموضوعات، فبدأ بايراد التشبيهات في الثريّا، ولكن قسمة الكتاب الى أبواب لا تعدو ان تكون قسمة تعسفية، فان الباب الذي تحدّث فيه عن الثريا قد اشتمل على تشبيهات في غروب الشمس وطلوعها من خلال السحاب وتشبيهات في الهلال. والحقّ أن ابن أبي عون لم يعتمد التبويب لكتابه، وهو يصرح بذلك في قوله: "ولو قصدنا تبويب الأبواب لبطل الشرط في التشبيه، وزال حسن الاختيار، واختلط الغث بالسمين والبارد بالحار"(١). ولكن ابن أبي عون استعمل مبدأ التداعي الحر، في بناء كتابه، فاذا تحدث عن الشمس والهلال أسلمه ذلك الى الحديث عن طلوع الصبح، فاذا انتهى من الحديث عن هذا الموضوع، تذكر ان بين الشمس والحرباء علاقة لأن الحرباء تقابل بوجهها عين الشمس وهي تمسك الأغصان بيديها، ومن ثم اقتضى المقام أن يورد تشبيهات تتصل بالحرباء. وتوحي له صورة الحرباء المتشبثة بالشجرة صورة للمصلوب، فيشفع الفصل عنها بفصل في التشبيهات التي أوردت ذكر المصلوب. ولمع البرق في القيافي يقرّب الى ذهنه حقيقة

(١) تشبيهات ابن أبي عون: ٢٧.

الأسفار فيتحدث بعد لمع البرق عن المسافرين واختلاف ألوانهم وضمور الابل وشدّة تعبها . ولكنه لا يكاد يفرغ من ذلك حتى يهيم خاطره وراء موجات السراب في تلك الفيافي فيعقد فصلا لايراد التشبيهات التي وردت في السّراب، وعلى هذا فان كل نظرة تبويبيّة الى الكتاب تخرجه عمّا رسمه المؤلف في بداية الأمر. وحسبنا ان نقرأ فصلا في تشبيهات النار، يتلوه فصل في طول الليل، يتلوه آخر في خفوق القلب، يتلوه رابع في فناء الناس حتى نعلم أن ابن أبي عون لا يقيّد نفسه بالصلة الموضوعية في تأليف كتابه. ولكنا نعلم منذ البداية ان شرطه في التأليف اختيار نوادر التشبيهات دون الأوصاف والاستعارات ودون الأمثال الشعرية، لأنه سيفرد كتابين لكلّ من الاستعارة والمثل السائر كما قدّمنا . غير أنه لا يكاد يكفّ في نفسه الميل الى تضمين هذا الكتاب بعض الاستعارات والأمثال، ولذلك نجده أحيانا يفارق منهجه في ايراد التشبيه ليقول: " ومن حسن الاستعارة"[1]، أو يقول: "ومن أجود الأمثال في ذلك"[2]. وما ذلك الا لأن سيطرة الأركان الشعرية الثلاثة على نفسه كانت قويّة، بل انه أحيانا ينساق مع الموضوع فيورد أبياتا لا تشبيه فيها[3]. وكثيرا ما كانت الرابطة

(١) ابن أبي عون : ١٢٣ .
(٢) ابن أبي عون : ٣٤٨ .
(٣) ابن أبي عون : ١٢٥ .

الموضوعية تسيطر عليه حتى ليحاول أن يكف نفسه عن الاسترسال فيها مخافة الابتعاد عن موضوعه الأصلي، كقوله: "ولولا ان غرضنا نوادر التشبيهات لذكرنا جملة من الهجاء للمغنيات، ونحن نذكره في الكتاب الآخر"(١).

غير أن النظرة الموضوعية لدى ابن أبي عون قد ميّزت كتابه على الكتب المؤلفة في التشبيه من ناحيتين: أولاهما أنه لم يقتطع أبيات التشبيه من قرائنها، ولذا كان يورد القصيدة كاملة أحيانا في سبيل تشبيه واحد ورد فيها، ذهابا منه الى ان هذا التشبيه لن تتضح قيمته الاّ اذا قرئ في قرينته. وهذه القاعدة جعلت كتابه يحفل بالمختارات الطويلة نسبيا بدلا من الاكتفاء بايراد الصور الشعرية. وبهذا يلتقي، في بعض نواحيه، بكتب المختارات كحماسة أبي تمّام. والثانية ان ابن أبي عون كان يدرك تماما ان الصور الشعرية قد تغمض مدلولاتها بتغيّر الزمن، ولهذا ندب نفسه لشرح الصور القديمة وخاصة الجاهلية، لأنه يعلم ان المجتمع المحدث لم يعد يستطيع ادراك هذه الصور بوضوح.

وممّا أكد لديه ايراد المقطوعات الكاملة في سبيل ابراز موضع التشبيه فيها انه كان ما يزال يجد بين يديه موروثا أدبيا ـ من قديم ومحدث ـ لا يعتمد على ابراز الصورة من أجل الصورة ذاتها، وانما

---

(١) ابن أبي عون، ١٢٧.

تأتي فيه الصور والتشبيهات في السياق العام للقصيدة.

على أن ابن أبي عون كان يدرك تماما ان الشعر المحدث أشد عناية بفن التشبيه من الشعر الذي سبقه، ولهذا نجده يقف وقفة نقدية في كتابه عند الفرق بين هاتين المرحلتين، فيقول: "وقد تكررت في كتابنا تشبيهات للمحدثين مثل أبي نواس وبشار ومسلم والطائي والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وأضرابهم، لأنا اعتمدنا على اثبات عيون التشبيهات المختارة والمعاني الغريبة البعيدة دون المتداولة المخلقة، والمتقدمون وان كانوا افتتحوا القول وفتحوا للمحدثين الباب ونهجوا لهم الطريق، فكان لهم فضل السبق واستئناف المعاني وصعوبة الابتداء، فان هؤلاء قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه وولّدوا المعاني وزادوا على ما نقلوا وأغربوا في ما أبدعوا، ولو أثبتنا تشبيهاتهم القديمة كتشبيههم النّاقة في الضخم بالقصر والقنطرة، وفي الصلابة بالعلاة والصخرة، وفي السرعة بالجندلة والأثفية، وسرعة الفرس بنجاء الظبي، وتشبيه الجواد بالبحر، والسيّد بالقرم وهو فحل الابل، والوجه الحسن بالقمر والشمس، وأحداج النساء بالنخل والسفن، والنجوم بالمصابيح، والنساء ببيض النعام، لطال بذلك الكتاب وآل أكثره الى معنى واحد، وكان المحكي منه معروفا غير مستغرب، فزال حسن الاختيار وتنقّي الألفاظ واستغراب المعاني، وطلابنا الجيد حيث

وجد وقصدنا الغض والنادر لمن كان"[١].

وهذا الموقف، وان لم يدل على تعصب ابن أبي عون للمحدثين، فانه يشير الى أنه عازف عن الصور المكررة التي حفل بها الشعر القديم، وان ذوقه محدث في الانتقاء، وان لم يحمله ذلك على اغفال الصور الجيدة في الشعر الجاهلي والاسلامي. واذا كان للإحصاء من قيمة في تبيان طبيعة الكتاب فان كتابه قد احتوى على مختارات لـ ٤٧٦ شاعرا، منهم ٤٥ شاعرا من الجاهليين والاسلاميين، و٤٠ من الفترة الأموية، وحوالي ٥٠ من الشعراء العباسيين[٢]. ولكنه يكثر من ايراد أشعار هؤلاء العباسيين كأبي تمام وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي والبحتري وابن المعتز.

كلّ ما تقدّم لا يعني أن ابن أبي عون لم يفارق منهجه في هذا الكتاب، فهو قد قرّر منذ البداية أنه يريد أن يورد في كتابه تشبيهات الشعراء وبدائعهم الظريفة. ولكن غرامه بالتشبيه من كل نوع جعله يورد تشبيهات قرآنية أولا، ثم يورد لطائف من التشبيه الوارد في النثر[٣]. وقد

---

(١) ابن أبي عون: ٧٤.
(٢) ابن أبي عون، مقدمة المحقق، الصفحة: XV.
(٣) ابن أبي عون: ٣١٢.

مهّد لهذا بقوله : "التشبيه ، وان كان في الشعر أحسن وعلى الشاعر أصعب، لأنه يتعمّد اصابة التشبيه ويتخيّر الألفاظ ويحترس من اللّحن والاحالة ويزيّن الكلام ويحصره بالقافية، فان للأدباء والظرفاء والحكماء والمتأملين والمجّان والمخنثين تشبيهات صحيحات ومعاني رائعات، ونحن نذكر منها جملة مختارة"[1]. ثم هو قد فارق منهجه مرّة أخرى حين صرفه ذوقه الى اختيار أشعار جميلة ليس فيها أثر للتشبيه أولا دون أن يشعر انه كان ينقض على نفسه المبدأ الذي كان قرّره في مقدّمة الكتاب، ولو قرأنا الأبيات التالية لأبي نواس:

ما حطّكَ الواشونَ من رتبةٍ عندي ولا ضرّك مغتابُ

كأنّما أثنوا ولم يعلَموا عليكَ عندي بالذي عابوا

إن جئتُ لم تأتِ وان لم أجئْ جئتَ فهذا منكَ لي حابُ

كأنما أنت وإن كنتَ لا تكذبُ في الميعادِ كذّابُ[2]

لوجدنا أنها تخلو من التشبيه رغم إصرار ابن أبي عون بأن البيت الأخير منها يحتوي تشبيها، وذلك لأن "كأنما" خدعته عن حقيقة البيت . ولو

---

(١) ابن أبي عون: ٣١١ـ ٣١٢.

(٢) ابن أبي عون: ٣٦٦ .

تنبه ابن أبي عون الى كثير من القطع التي أوردها لأدرك أن العامل الحاسم في جمالها ليس دائما هو التشبيه ، ولكنه لم يكن ليدرك ذلك لأن هذه الحقيقة تنقض عليه المبدأ الكبير الذي قرّره في أول الكتاب . والناقد الحديث حين يقرأ قول أبي نواس:

ردّا عليّ الكاسَ إنكما ... لا تعلمانِ الرّاحَ ما تجدي

لو ذقتُما ما ذقتُ ما مُزِجتْ ... الا بدمعِكما من الوجدِ

ما مثلُ نعماها إذا اشتملتْ ... إلا اشتمالَ قسمٍ على خدِّ

إن كنتما لا تشربانِ معي ... خوفَ العقابِ شربتُها وحدي

ان هذا الناقد ليدرك أن الصورة التي يريدها ابن أبي عون، وهي اشتمال القسم على الخدّ، ليست الا عنصرا عارضا في منح هذه الأبيات ما فيها من جمال شعري .

وعلى الجملة فان كتاب ابن أبي عون يعرض شريطا متفاوتا من التشبيهات على اختلاف العصور ، ولكنه ـ ككلّ الكتب التي عرفناها في هذا الباب ـ يحشد دون مفاضلة ودون تبيان لأسرار التشبيه وارتفاع صورة على أخرى، الا في القليل النادر. وفي هذا الكتاب معرض لذوق ابن ابي عون الناقد . وفيه ، الى جانب ذلك، جانب من صورة لابن أبي عون الشاعر،

لأنـه أورد لنفسه نماذج من التشبيهات. ولـم يقتصر في مختاراته على الشعراء المشهورين، بل أورد شعرا اعتبره جميلا لكثير من المغمورين أو المقلين الذين لـم يشتهروا كثيرا في ميـدان الشـعر.

ب. كتاب التشبيهات من أشعار أهل الاندلس
لأبي عبد الله محمد بن الكتّـاني الطبيب:

يعدّ أبو عبد الله بن الكتاني الشهير بالمذحجـي[1] في الطبقـة الثانية من الأندلسيين الذين اهتموا بدراسة المنطق والفلسفة، فهو تلميذ المجريطي ومعاصريه الذين يمثلون الطبقة الأولى، وهو في الوقت نفسه استاذ الفقيـه أبي محمد بن حزم. وقد أخـذ الطب عن عمّـه أبي الحسين الذى كان مقدّما أيام النّـاصر والمستنصر. وجمع الى ذلك كلّـه معرفة بالأدب وصناعة الشعر. وقد عاش فترة نشيطة من حياته أيام الدولة العامـريـة (٣٦٦ـ٣٩٩). وكان مقرّبا من المنصور بن أبي عامر، ثم أدرك الفتنـة البربرية التي تسبّبت في خراب قرطبة وانهيار الدولة الأموية وانقسـام الأندلس الى دويلات مستقلّة. ولمـا أدركته وفاته حوالي سنة ٤٢٠ كـان في الثمانين من عمره. وكتابه في التشبيهات يمثّل حقبـة اشتد فيهـا التنبّه للآثار الأندلسية وحرص فيها الأندلسيون على تدوين كل ما يتعلّـق

(١) انظر ترجمته في طبقات صاعد، ٨٢، وانظر مقدّمة المحقق لكتابه في التشبيهات.

بجزيرتهم من تاريخ وجغرافية وشعر وأدب وتراجم . وهي حركة بدأها الحكم المستنصر يوم كان وليا للعهد في عهد أبيه عبد الرحمن الناصر، وحمل لواءها بتشجيعه كثير من العلماء والأدباء، فكتب أحمد بن موسى الرازي وعيسى بن أحمد الرازي مؤلفات في تاريخ الأندلس وجغرافيتها . وكتب محمد بن الحارث الخشني سجلا لتاريخ قضاة قرطبة، واهتم ابن الفرضي بالعلماء والرواة كما اهتم الزبيدي بتاريخ النحو والنحويين في الأندلس . ودوّن صاعد القاضي الطليطلي أخبار المهتمين بالمنطق والفلسفة من أبناء وطنه . ووصلت هذه الحركة ذروتها في ابن حزم الأندلسي الذي كتب رسالته في فضل الأندلس (٢) ينافح عن مآثرها في العلوم عامّة . وفي هذه الحلقة يقف أستاذه المذحجي الكتاني الذي ألف كتابا كاملا في التشبيهات عند الأندلسيين .

وبين كتاب الكتاني وكتاب ابن أبي عون حوالي مائة عام في الزمن، ويبدو ان الكتاني قد اطلع على كتاب الأديب المشرقي فأفاد منه شيئا كثيرا في طبيعة الموضوعات التي سيتحدث عنها في كتابه . ولكنه أفاد ما هو أكثر من ذلك حين حاول أن يتجنّب اكبر نقيصة تتمثل في كتاب ابن

---

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص: ٤٢ ـ ٥٢ ، لتصوير هذه الحركة .

(٢) وردت هذه الرسالة في نفح الطيب ٣: ١٥٦ـ١٧٩ .

أبي عون وهي ذلك الاضطراب الشديد في ترتيب الأبواب ذات الموضوعات المتباعدة. وكان ابن الكتاني منطقيا، فأثّرت فيه ثقافته هذه حين انتحى ترتيبا ليس فيه اختلال كثير من حيث الدّقة، فهو قد قسم كتابه في ثلاثة أجزاء جعل الجزء الأول منه في كل ما يتصل بالطبيعة الكبرى من سماء ونجوم وقمر وشمس وصبح وبرق وريح ورعد وربيع وزهر وأنهار وجداول وبساتين، وألحق بهذا الباب الطبيعي كل ما يتعلق بالخمر والغناء ولعله نظر الى أن الطبيعة هي خير مهاد لهذا اللون من النشاط الانساني. وخصص الجزء الثاني للحديث عن جميع مظاهر الجمال وما يتعلّق بذلك من حبّ وما ينشأ عنه من بكاء وخفوق في القلب ونحول. وبذلك وقف عند العلاقات الانسانية في أكبر مظاهرها، حتى اذا انتهى من هذا القسم اتجه الى الموضوعات التي تمثّل حيويّة الكفاح الانساني في الطبيعة وفي الحرب.(١) وتحدّث في الجزء الثالث عن موضوعات أقلّ اتصالا ببعضها البعض، ولكن كل باب منها مميّز تماما بموضوعه. وفي ختام الكتاب عقد بابا لموضوعات متفرقة لا يضبطها نظام كما فعل من قبل ابن أبي عون في الباب الأخير من كتابه. فالاتفاق بين الكتابين تام في الأبواب الأولى وفي الخاتمة. ثم يفترق الترتيب بعد ذلك. على أن هذا الافتراق لا يمثّل الا طبيعة الإحكام

---

(١) انظر مقدمة الكتاب، ص: ١٥.

في الترتيب أو الفوضى فيه ، أما في عناوين الأبواب نفسها ، فهناك اتفاق كثير. ويتميّز ابن الكتاني بأنه أكثر اهتماما بصور الطبيعة، كما يتميّز ابن أبي عون بانه أشد اهتماما بالموضوعات التي تتصل بالمدح والهجاء. ويكاد كتاب ابن أبي عون يخلو من كل شيء يتصل بالبحر والسفن والشتاء والصقيع والنواعير والأرحاء والميل الى الورد، وكل هذه الموضوعات مما استأثر باهتمام الأندلسيين لأنه جزء هام من طبيعة بلادهم. وقد حصر ابن الكتاني نفسه في دائرة ضيّقة حين قصر اهتمامه على الشعر الأندلسي، وكان المجال لدى ابن أبي عون أرحب كثيرا اذ كانت دائرة التشبيه عنده تشمل عصورا طويلة ومساحة مكانية مترامية. وقد حاول ابن الكتاني شرح بعض الكلمات والتعليق السريع على بعض الأبيات، فاتفق في ذلك مع صاحبه المشرقي، ولكنه لم يدرج في كتابه شيئا من شعره.

ومهما يكن من شيء فان كتاب ابن الكتاني يحتل موقعا هاما في سلسلة الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، ويزيد من أهميته أنه قد جمع شعر فترة أندلسية ضاعت اكثر مصادرها، ودواوين شعرائها، فهو أيضا مصدر هام لمن يريد أن يؤرخ الشعر الأندلسي في عصر الأمويين والعامريين.(١)

---

(١) تشبيهات ابن الكتاني، مقدمة المحقق، الصفحة ١٦.

ويبين الجدول التالي مواطن الاتفاق والافتراق بين ابن الكتاني وابن أبي عون :

ابن الكتاني	ابن أبي عون	الموضوع
الباب "١"	الباب "٢"	باب من التشبيهات في السماء والنجوم والقمرين
الباب "٢"	الباب "٣"	باب في انبلاج الصبح
الباب "٣"	ـــــ	باب في الريح
الباب "٤"	الباب "٩"	باب في البرق والرعد
الباب "٥"	الباب "٣١"	باب في السماء والمطر
الباب "٦"	ـــــ	باب في الربيع والزهر
الباب "٧"	ـــــ	باب في الورد
الباب "٨"	الباب "٨٥"	باب في تغريد الطير في الرياض ووصف الحمام
الباب "٩"	الباب "٣٧"	باب في الانهار والجداول والمياه الجارية والأواجن
الباب "١٠"	الباب "٥٧"	باب في القصور والبساتين والصهاريج والشجار
الباب "١١"	ـــــ	باب في الناعورة والرحى
الباب "١٢"	الباب "٧٧"	باب في المأكولات من الفواكه وغيرها
الباب "١٣"	الباب "٣٤"	باب في الشراب وأوصاف الخمر
الباب "١٤"	الباب "٣٥"	باب في صفات الكؤوس والأقداح
الباب "١٥"	ـــــ	باب في السقاة والنّدامى
الباب "١٦"	الباب "٢٢"	باب في القيان والمغنين

ابن الكتاني	ابن أبي عون	الموضوع
الباب "١٧"	ـــــ	باب في العود والطنبور وسائر المعازف
الباب "١٨"	الباب "٤٣"	باب في الشّعر
الباب "١٩"	ـــــ	باب في الحسن
الباب "٢٠"	الباب "١٧"	باب في الشّعر وسواده وشقرته
الباب "٢١"	الباب "٥٥ + ٥٦"	باب في أصداغ القيان وعذر الغلمان
الباب "٢٢"	الباب "١٥"	باب في اشراق الوجه وتشبيه الخدود والخيلان
الباب "٢٣"	الباب "١٤"	باب في فتور العين ومرضها وغنجها
الباب "٢٤"	الباب "١٨"	باب في الثغر وطيب الريق
الباب "٢٥"	الباب "٢١"	باب في النهود
الباب "٢٦"	الباب "١٦"	باب في مشي النساء وتشبيه القعود
الباب "٢٧"	الباب "١٩"	باب في الحديث
الباب "٢٨"	الباب "٢٠"	باب في الخصور والأرداف
الباب "٢٩"	الباب "٤٧"	باب في العناق والوداع
الباب "٣٠"	الباب "١٣"	باب في البكاء
الباب "٣١"	الباب "٤٠"	باب في خفوق القلب
الباب "٣٢"	الباب "٣٩"	باب في طول الليل والسهر ومراعاة النجوم
الباب "٣٣"	الباب "١٢"	باب في الخيال

ابن الكتاني	ابن أبي عون	الموضوع
الباب "٣٤"	الباب "١٠"	باب في النحول
الباب "٣٥"	الباب "٣٢ + ٣٣"	باب في الوقوف على الدّيار والربوع
الباب "٣٦"	الباب "٣٨"	باب في النيران
الباب "٣٧"	ـــــ	باب في الشتاء والصقيع
الباب "٣٨"	الباب "٥٨"	باب في قطع المفاوز وصفات الابل والمسافرين
الباب "٣٩"	الباب "١١"	باب في السراب
الباب "٤٠"	ـــــ	باب في البحر والسفن
الباب "٤١"	الباب "٧"	باب في الطرد
الباب "٤٢"	الباب "٨"	باب في الحيّات
الباب "٤٣"	الباب "٦"	باب في الخيل
الباب "٤٤"	الباب "٢٦"	باب في السيوف
الباب "٤٥"	الباب "٢٧"	باب في الرماح
الباب "٤٦"	الباب "٢٥"	باب في القسيّ والنّبال
الباب "٤٧"	الباب "٢٨"	باب في الدروع والبيض
الباب "٤٨"	ـــــ	باب في الرايات والتجافيف والطبول
الباب "٤٩"	الباب "٣٠"	باب في الحرب ووصف الطعان والضراب والجيوش والفتوح
الباب "٥٠"	الباب "٥"	باب في الرؤوس والمصلوب
الباب "٥١"	الباب "٥١"	باب في الخوف والمهابة

ابن الكتاني	ابن أبي عون	الموضوع
الباب "٥٢"	الباب "٨٧"	باب في الدواة والقلم والصحيفة
الباب "٥٣"	ـــــ	باب في السكين والجلم
الباب "٥٤"	ـــــ	باب في الحذبة والمروحة
الباب "٥٥"	الباب "٥٣"	باب في الجود
الباب "٥٦"	ـــــ	باب في البخل
الباب "٥٧"	ـــــ	باب في الخوان والأكلة والطفيليين
الباب "٥٨"	الباب "٢٣ + ٢٤"	باب في هجو النساء والمغنيات
الباب "٥٩"	الباب "٨٣"	باب في الثقلاء والكذبة وشبههم
الباب "٦٠"	الباب"٨١ + ٨٨"	باب في اللحن
الباب "٦١"	الباب "٤٨"	باب في الطيلسان والدرهم
الباب "٦٢"	الباب "٤١"	باب في الاعتبار بفناء الناس وتقلب الدهر بهم
الباب "٦٣"	الباب "٤٢"	باب في الشيب والهرم
الباب "٦٤"	ـــــ	باب في ذم الدنيا وذكر الموت
الباب "٦٥"	ـــــ	باب في الموتى والأجداث
الباب "٦٦"	الباب "٩١"	باب شوائب تقل نظائرها

* * *

تلك هي كتب التشبيه التي عرفتها قبل عصر ابن ظافر ، فهل اطّلع هو على هذه المصنّفات؟ والى أى مدى أفاد منها واقتبس عنها؟

من المستبعد ان يكون ابن ظافر جاهلا بهذه الكتب ، وهو الذى يدّعي أنه اختار مجموعه من أكثر من ١٥٠٠٠ ورقة. ولكن يصعب تحديد المدى الذى ذهب اليه في اقتباسه عن هذه الكتب أو احتذائه لمناهجها وتقسيماتها، ذلك أنه لم يصلنا منها غير كتابين هما تشبيهات ابن أبي عون وتشبيهات ابن الكتاني . والأمثلة المشتركة بينه وبين هذين الكتابين قليلة تكاد لا تذكر. ومن المرجح أنه لم يقتبس عن بقيّة الكتب لغير سبب واحد، فمعظم الكتب المذكورة قد ألف في فترة مبكّرة نسبيا، فاحتفل لذلك بشعر فترة أو فترات لم يقف ابن ظافر عندها طويلا . ثم انه يهتم كثيرا بأشعار الشعراء المصريّين الذين قاربوا عصره ، ولا يمكن ان يكون شعرهم في أى من المصنّفات السابقة. أضف الى ذلك أن ابن ظافر نفسه قد تعمّد التفرّد والاغراب وانتقاء خبير التشبيهات وعجائبها، وهو يدّعي ألا أحد من المصنّفين قبله قام بمثل هذا العمل فكلّف نفسه عناء غربلة التشبيهات وتمييز ذهبها عن

مدرها وخلاصتهما عن خبثهـا [١] ـ وفي هذا اشـارة لبقة غـير مباشـرة يغمز بهـا من قنـاة من سبقه ، فلا يعقل ان ينقل عنهـم بعـد ذلـك وهو الذي يطمح أن يكون مبتكرا مجدّدا ليصبح كتابـه " طليعة لمـا بعده مـا يرد عليه الأمـر باقتفاء مثالـه "[٢] .

(١) التشبيهات ، الورقـة : ٦ أ .
(٢) التشبيهات ، الورقـة : ٦ ب .

٠٧ كتاب ابن ظافر في التشبيهات

ـ سبب تأليف الكتاب والنهج المتّبع فيه :

يتضح من حديث ابن ظافر في مقدّمة هذا الكتاب أنه رفعه الى الملك الأفضل عام ٥٨٧ أثناء حصار عكا . وقد ذهبنا الى أنه قصد، في البدء، تقديم هذا الكتاب لصلاح الدين، ولكنّه عدل عنه الى ابنه الأفضل بسبب انشغال صلاح الدين بالأمور الحربيّة . ولعلّ ما يؤيدنا في ظننا هذا وجود مقدّمتين للكتاب كان يمكن الاكتفاء بالثانية منهما . ولكنّنا نرجح أنه أضاف احداهما ـ المقدّمة الأولى ـ بعد أن التحق بخدمة الأفضل وقرّر رفع الكتاب اليه . ولم يترك ابن ظافر مجالا للشك في أنه هدف من كتابه هذا الى ان ينال الحظوة والعطاء. فلقد قدّم له بقصيدة في مدح الأفضل قال فيها :

لقد وشّحتُها بحلى المعاني كما ألبستُها حللَ الكلامِ
وقد أتبعتُها أيضا كتابًا بعثتُ به الى الهمم السّوامي
أتى ليسوقَ لي سحبَ العطايا كفعلِ الريح بالغيثِ الرّهامِ
فعجّلْ لي بجودكِ يا مليكَ السلامِ فقد أطلتُ له مقامي

وختم كتابه راجيا "أن يبعث اليه المجلس من عواطفه عاطفة ويسكنه من جاهه في ظلال النعيم الوارفة ويجيره من كل أزمة ليس لها من دون

اللـــه والجناب الأسمى كاشفة"[١].

أما سبب اختياره للتشبيهات موضوعا لكتابه فقد ذكـر في المقدّمة أنه "نظر ... فوجد فنّ التشبيه بين الاشعار عالي القدر نابه الذكـر لا يمكن كل الناس سلوك جادته ولا يقدر الا اليسير منهم على اجادتـــه، حتى استهوله أكثر الشعراء واستصعبه وأبى بعضهم أن يجهد بأن يروّض مصعبـه"[٢]، وادّعى انه "لم يجد أحدا من المؤلفين ولا مصنّفا من المصنفـين اشتغـل بتمييز ذهبه عن مدره ولا خاض في بحاره لاستخراج درره .... فاختار هذا المجموع ... وجمع فيه جملا من غرائب أبياته ومعجزات آياته ليكون أنسا للمجلس الأسمى في هذا الوقت وأمثاله، وطليعة لما بعـــده مما يرد عليه الأمر باقتفاء مثاله"[٣]. وسمّى ابن ظافر كتابه هذا "غرائـب التنبيهات على عجائب التشبيهات".

وقد جرى ابن ظافر في كتابه على النهج الآتـي:

(أ) افتتح كتابه بمقدّمة بيّن فيها علاقته بالملك الأفضل واعجابه به قبل اتصالهما، ثم لمّـا التقيا "صدق الخبر الخبر"[٤]، وبيّن هنا تاريخ تقديـم

---

(١) التشبيهات، الورقـة: ٨٤.
(٢) التشبيهات، الورقـة: ٦أ.
(٣) التشبيهات، الورقـة: ٦أ ـ ٦ب.
(٤) التشبيهات، الورقـة: ٢ب.

الكتاب وموضعه : "ورفعتها [أي القصيدة] صحبته يوم الأحد لخمس خلون من شهر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمس مائة بالعسكر المنصور على تل الحجل بمرج عكا"[١]. وهذه المقدّمة قصيرة مختصرة لا تستغرق الورقة الواحدة، ولكنها تشتمل على قصيدة طويلة في مدح الأفضل وصفة العسكر.

(ب) يتلو هذه المقدمة مقدّمة ثانية تبدأ أيضا "باسم الله الرحمن الرحيم"، وتشتمل على ما احتوته المقدّمة الأولى من مدح للأفضل وذكر مميّزاته وتبيان علاقة ابن ظافر به واعجابه بفضائله، وذلك بعد مدح "مولانا السلطان العادل الملك الناصر صلاح الدنيا والدين منقذ بيت الله المقدّس من الكفرة والمشركين"[٢]. وهي مقدّمة طويلة نسبيا تقع في أكثر من خمس صفحات. وقد ذكر فيها المسوّغات الفنيّة التي جعلته يتخذ التشبيهات موضوعا لكتابه كما أوضح غايته "الأدبية" من تأليف هذا الكتاب: "أن يكون طليعة لما بعده مما يرد عليه الأمر باقتفاء مثاله"، بالاضافة الى جمع غرائب أبيات التشبيه فيه ومعجزات آياته، ليكون أنسا للملك الأفضل في مجلسه وندواته. وذكر ابن ظافر في هذه المقدّمة أنه اختصر كتابه غاية

---

(١) التشبيهات، الورقة: ٢ ب.
(٢) التشبيهات، الورقة: ٥ أ.

الاختصار بسبب انشغال الأفضل وضيق وقته. (وهو يعود فيكرّر هذا القول في خاتمة الكتاب حيث يقول انه لم يورد "تعليقاته التي أفنى في جمعها عمره وقطع في طلبها دهره"). فقد راعى ما يقتضيه زمن الحرب من انصراف الى الأمور غير الأدبية. وقد ضمّن هذه المقدّمة الاسم الذي انتقاه لكتابه والترتيب الذي احتذاه، فذكر "أن مقصود الكتاب ينحصر في ستة أبواب" سماها وذكر الموضوع الذي تناولته. فهذه المقدّمة تشتمل اذن على فهرست موجز للكتاب وأبوابه.

(جـ) قسّم ابن ظافر كل باب من ابواب الكتاب الستة الى عدّة فصول، ذكر عددها في مقدّمة كل باب. وهذا بيان بأبواب الكتاب وفصوله:

(١) الباب الأول في تشبيه الأجرام العلوية، وفيه عشرة فصول:

- الفصل الأول في ذكر التشبيه الواقع في الهلال.
- الفصل الثاني في تشبيهه مع الثريا وسائر النجوم.
- الفصل الثالث في تشبيهه عند انتصافه وكماله وفي حالات مختلفة.
- الفصل الرابع - وما يتعلق بوصف القمر وصف ضوئه على الماء ....
- الفصل الخامس - وما يتعلق بذكر تشبيه ضوء البدر على الماء ذكر التشبيه المستحسن في ضوء الشمس والسرج.

- الفصل السادس فيما قيل في تشبيه الثريا ٠
- الفصل السابع فيما قيل في سائر النجوم من التشبيه ٠
- الفصل الثامن مما قيل في تشبيه قوس قزح والثلج والبرق والغيم٠
- الفصل التاسع في تشبيه المجرّة ٠
- الفصل العاشر في تشبيه الصبح ٠

(٢) الباب الثاني في التشبيه الواقع في صفات المياه والأنهار والغدران، وفيه خمسة فصول :

- الفصل الاول فيما قيل في الأنهار عند تجعدها بمرّ الريح عليها٠
- الفصل الثاني في تشبيه الأنهار الهادئة والعباب الساكنة ٠
- الفصل الثالث في ذكر التشبيه الواقع في تغيّر ماء الأنهار بالمدود ٠
- الفصل الرابع ومما يتعلق بوصف الأنهار ذكر ما قيل من التشبيه في المراكب ٠
- الفصل الخامس في تشبيه الفوارات وما شابهها ٠

(٣) الباب الثالث في تشبيه الأزهار والأثمار والنبات، وفيه ثلاثة فصول ٠

- الفصل الاول في تشبيه الأزهار٠ وقد تناول فيه ما قيل في تشبيه الأنواع التالية من الأزهار على الترتيب التالي :

النرجس، الورد ، الجلنار، البنفسج ، السوسن، الآذريون ،
المنثور السندي ، الياسمين الأصفر، النيلوفر، الريحان ،
الاقحوان ، البهار، الآس ، الشقائق ، ورد الباقلا ،

- الفصل الثاني في ذكر التشبيه الواقع في الأثمار، تناول فيه ذكر :
الأترج ، النارنج ، التفاح ، اللفاح ، المشمش، العنب، الخوخ
المشمر، الطلع، البلح ، الموز، الرمان ، السفرجل ، الكمثرى ،
التين ، النبق ، التوت، اللوز الأخضر، اليربوح ،
- الفصل الثالث فيما وقع من التشبيه في سائر النبات والأنقال ،
تناول فيه ذكر : البطيخ الخراساني ، العناب، الصنوبر، الفستق
الجوز، الفول المصلوق ، الباذنجان ، الخشخاش، قصب السكر ،
زهر الكتان ، السلجم الأصفر ، العصفر، سنابل القمح ، حب
البرّ ،

(٤) الباب الرابع في التشبيه الواقع في الخمريات، وفيه خمسة فصول :

- الفصل الاول في تشبيه الكأس بعد المزج ،
- الفصل الثاني في تشبيه الساقي ،

ـ الفصل الثالث في تشبيه الابريق والكأس .

ـ الفصل الرابع في تشبيه الشراب الأسود.

ـ الفصل الخامس في تشبيه ضوء الخمر .

(٥) الباب الخامس في التشبيه الواقع في الغزل، وفيه ستة فصول .

ـ الفصل الأول في تشبيه الثغور والشفاه والشوارب .

(وقد سقطت بقية الفصول من المخطوطة) .

(٦) الباب السادس في تشبيهات مختلفة .

سقطت منه الفصول الثلاثة الأولى وبقي جزء من الفصل الرابع، وتناول فيه تشبيه أرغفة الخبز والملح والسماق والفقاع .

ـ الفصل الخامس فيما قيل في الراي الطري من التشبيه .

ـ الفصل السادس فيما قيل من التشبيه في أنواع من المآكل .

تناول فيه: تشبيه جونة طعام . الخرفان . القطايف .

الاسفيذاج . البستندود . البيض .

ـ الفصل السابع في جملة من التشبيهات قيلت في أرباب صنائع مختلفة .

ـ الفصل الثامن في تشبيه أنواع من الحيوانات . تناول فيه : الفرس . الظبي . الزرافة . الفيل . الطاووس . الاوز . بنات

وردان . البق. البراغيث . القمـل .

ـ الفصل التاسع في تشبيهات مختارة من آلات الحرب . تنـاول فيه : السيف . لابس درع . القتيـل .

ـ الفصل العاشر في تشبيهات في أشياء مختلفة . تناول فيه تشبيه زامـرة سوداء . سفرة . مصلوب . مباضع الفصاد . الشيب . منارة . أنهار . الهرمين . دولاب .

(د) وينتهي الكتاب بانتهاء هـذا الفصل، وقد بدأ ابن ظافر خاتمته بأربعة أبيات في مدح كتابه هذا ومدح من قدّم اليه الكتاب، ثم يكرّر تأكيده على أنه اختصره كمـا أسلفنا، ويرجو ان ينال رضا صاحبه وعطاءه .

وقد تقيّـد ابن ظافر بهذا المنهج تقيّـدا صارما، والتزم هـذا التقسيم المحدّد بدقّة محافظا على وحدة الموضوع لا يحيد عنها، وهذا دأبه في بقيّة كتبه التي وصلتنا أو وصلنا بعض منها كبدائع البدائـه وشـفـاء الغليـل .

والكتاب، بعد هذا، مبنيّ على ايـراد أجود التشبيهات في رأي المؤلّـف، مع الاهتمام اهتماما كبيرا بالأصالة والابتكار والاغراب، ومن هنا فهو دائـم التقصي " للمصدر" الذي أخذ الشاعر قوله منه، فيورد هـذا البيت الذي يعتبره مصدرا، ثم يورد ما أخذ منه وهل تفوّق الشاعر الجديد

على سابقه أو قصّر عنه ، ويتتبع هذا "الأخذ" الى أقصى درجة ممكنة .

ويهتمّ ابن ظافر أيضا بالتحقّق من صحّة نسبة الأبيات التي ينتقيها ، ويورد ملاحظاته على هذه النسبة حين يعتريه الشك كأن يقول : "وهذا المعنى مأخوذ من أبيات وجدتها منسوبة الى ابن المعتز ولست أظنها له" ، أو كقوله : "قال ابن المعتز وينسب الى الخباز البلدي" ، أو : "... قول سيف الدولة بن حمدان وينسب الى ابن الرومي وهو الصحيح" ، وهكذا .

وهذه كلّها أمور تكسب الكتاب قيمة خاصة سيرد الحديث عنها في الفقرة التالية .

- <u>قيمة الكتاب ومنزلته بين كتب التشبيهات</u>

يشكّل هذا الكتاب حلقة جديدة في سلسلة كتب التشبيهات التي لم يظهر منها حتى الآن غير تشبيهات ابن أبي عون وتشبيهات ابن الكتاني . فهو ، من هذه الناحية ، وثيقة مهمّة لمن أراد دراسة هذا الاتجاه الفني ـ التشبيه ـ الذي سيطر على الذوق الأدبي العربي ردحا طويلا من الزمن .

والكتاب متأخر زمنيا عن هذين الكتابين ، يضم الكثير من شعر التشبيه

الذي قيل بعد عصرهما، ثم ان التشبيهات المشتركة بينه وبينهما قليلة جدا، فهو يشترك مع ابن الكتاني بايراد مثل واحد فحسب، في حين لا تعدو التشبيهات المشتركة بينه وبين ابن أبي عون نسبة ضئيلة، وهي تمثّل الابيات التي أصبحت " نماذج " تحتذى في هذا الفن لا يمكنه تجاهلهما كوصف البحتري لبركة المتوكّل، او تشبيهات امام هذه الصنعة، ابن المعتز. وهو، في هذا، يحاول جاهدا أن يكون اختياره لأبيات لم يوردها غيره . ففي باب الخمريات مثلا يكثر ابن أبي عون من الاستشهاد بابن المعتز، في حين اقتصر ابن ظافر على الاستشهاد به مرّتين فقط، وقد وقع اختياره على أبيات لم يوردها ابن أبي عون . ويخلو الكتاب تماما من الشعر الجاهلي الذي اكثر ابن أبي عون من الاستشهاد به .

وهذا التفرّد يضفي على الكتاب قيمة خاصة، فهو، من جهة، تتمّة لكتب التشبيهات التي ألفت قبله، وليس اعادة وتكرارا لها . وهو، من جهة اخرى، يكشف عن منحى من مناحي الذوق الأدبي الذي ساد عصر ابن ظافر، ذلك أنه يقوم بعمليّة اعادة اختيار وتقويم لغرائب التشبيهات التي تمثّل ذوق العصر الفني قدر تمثيلها لذوق ابن ظافر الفردي .

وقد حاول ابن ظافر التفوق على المصنفات السابقة في انتحاء طريق الاختيار للغرائب والعجائب من التشبيهات، فهو يسعى الى التفوّق في نوع التشبيه الذي يكون عنصر

الاغراب فيه أقوى . ومن هنا جاء اصراره وتتبعه الملحّ لتبيان التشبيه المتداول بين مأخوذ عنه وآخذ ، وذلك طلبا للتفرد والجودة والأصالة والابتكار في التشبيه . وهذا ، بدوره ، أكسب الكتاب ميزة جديدة هي اشتماله على ايماءات وملاحظات نقديّة .

ويشترك هذا الكتاب مع تشبيهات ابن الكتاني من حيث تنسيق مادته وتبويبها تبويبا متعمدا قائما على اختيار "موضوعات ذات علاقة فيما بينها متدرّجة"[1] . وهذا يخالف ما اتّبعه ابن أبي عون من تقسيم يقوم ، في الدرجة الاولى ، على التداعي دون وضوح تام بالنسبة للموضوعات التي تدور حولها الأبواب أو التزام بوحدة الموضوع المتناول . والنظام الذي اتبعه ابن ظافر أكثر تحديدا وتفصيلا من تقسيمات ابن الكتاني ، فابن ظافر يحدّد موضوعا عاما للباب ، ثم يقوم بتفريع هذا الموضوع في فصول تضمّ الموادّ المنبثقة عن هذا الموضوع العامّ . وهذا جعل أبواب كتابه أقلّ عددا وأكثر تركيزا ، فالكتاب يقع في ستّة أبواب في حين يقع كتاب ابن أبي عون في " ٩١ " بابا وكتاب ابن الكتاني في "٦٦" بابا .

وتجدر الملاحظة أن ابن ظافر يلحّ على التشبيهات المتعلقة بالطبيعة على اختلاف مظاهرها ، فقد أفرد لها ثلاثة أبواب ، بلغ مجموعها "١٨" فصلا ، وهذه الأبواب تشكّل نصف أبواب الكتاب . وهو يتقصى ما

(١) انظر مقدمة كتاب ابن الكتاني : ١٥ .

قيل من شعر فيها تقصيا شديدا، وحين يتركها الى الأبواب التالية يأخذ في الاختصار، فهو يقول في نهاية الفصل الأول من الباب الرابع ـ باب الخمر: "وهذا فصل لو تقصي لطال، فالوجه الاختصار والاقتصار"(١). وهو يجمل في الباب السادس تشبيهات مختلفة تضمّ الانسان والحيوان وأنواع الأطعمة والحبوب وآلات الحرب وأرباب الصناعة، وهي موضوعات أفرد لكل منها ابن الكتاني وابن أبي عون أبوابا خاصة طويلة واكتفى ابن ظافر في جمعها في باب واحد ولم يفرد لكلّ منها فصلا خاصا بل شمل الفصل عدّة موضوعات منها، والأمثلة التي تخيّرها لهذه الموضوعات قليلة نسبيا، وهي لا تتعدى أحيانا المثل الواحد. فالطبيعة اذن وما قيل فيها من تشبيهات هي منطلق هذا الكتاب ومركز ثقله.

وتتجلّى في الكتاب نزعة ابن ظافر المصرية فهو يكثر من الاستشهاد بابن قلاقس وظافر الحداد وابن مكنسة الاسكندري وابن وكيع التنيسي وتميم بن المعز وابي الحسن العقيلي ولا تنسى شعره أيضا، ولا عجب فالمؤلف مصري يرتحل الى الدّيار الشاميّة فيحمل معه محاسن أشعار أهل وطنه يعرّف بها ويتحف بها القوم الذين التحق بهم. كما تتضح ميوله ـ ومن خلالها ميول عصره ـ نحو الأندلس كل الوضوح بحيث لا يكاد يخلو فصل من فصول الكتاب من مجموعة أبيات لشعراء أندلسيين. وهذا

---

(١) التشبيهات، الورقة: ٦٨ أ.

يكسب الكتاب قيمة جديدة، فابن الكتاني حصر كتابه بأشعار أهل الأندلس واقتصرت تشبيهات ابن أبي عون على الأشعار المشرقيّة، ولكنّ ابن ظافر يعنى بالتشبيه الحسن الغريب سواء جاء على لسان المشارقة أو المغاربة .

وكتاب ابن ظافر، بالاضافة الى كلّ ما ذكرنا، معرض لذاته وبراعته وإجادته ممّا يضفي عليه قيمة تاريخيّة أيضا لمن يريد دراسة ابن ظافر الشاعر، وهو شخصيّة مرموقة في عصره .

ـ إشارة المصادر الى هذا الكتاب والنسخة المعتمدة في التحقيق

لم تشر المصادر الى كتاب لابن ظافر باسم "غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات" ولكن كلا من ياقوت وابن شاكر ذكر ان له كتابا في التشبيهات دون تحديد لاسمه بدقّة . وقد اعتمدت في اثبات اسم الكتاب على مقدّمته، فهو فيها صريح واضح لا لبس فيه . غير أن مفهرس مخطوطك الاسكوريال قد سمّاه "المناقب النوريّة"، ومنشأ الوهم في هذا قول ابن ظافر في بدء مقدّمته : "لم أزل في كل أوان وزمان أسمع من أوصاف المآثر الملكية الأفضلية والمناقب النورية السلطانية ..."[1]، وما قصد ابن ظافر غير الإشارة

(١) التشبيهات، الورقة : ٢ أ .

الى الملك الأفضل ذاته ومناقبه النوريّة، وذلك نسبة الى لقبه "نور الدين"[١].

وقد ضلّلت هذه التسمية بروكلمان فذكر كتاب "المناقب النوريّة" بين كتب ابن ظافر، وتابعه في هذا زيدان[٢] والزركلي[٣] فذكرا الكتاب بتحريف جديد حين سمّياه "ذيل المناقب النوريّة". فـ"المناقب النورية" أو "ذيل المناقب النورية" هو بعينه كتاب "غرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات"، لأن الرقم الذى يحمله ما يسمى بـ"المناقب النورية" في مكتبة الاسكوريال هو نفس رقم هذه المخطوطة التي قمت بتحقيقها، والتي تسمى على التحقيق "غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات".

ومن هذه النسخة المذكورة، وهي رقم ٤٢٥ اسكوريال، حصل معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية على ميكروفيلم وأدرج اسمه في فهرست المخطوطات المصورة[٤] تحت عنوان "غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات"، أي أن المرحوم الاستاذ فؤاد السيّد، مفهرس هذا الجزء، قد تنبّه الى خطأ اسمه في فهرست الاسكوريال.

ومن طريق معهد المخطوطات في الجامعة العربية حصلت على

---

(١) وهذا اللقب يورده ابن ظافر نفسه في الورقة (٥أ) حيث يقول: ..."الملك الافضل العالم العادل... المظفر المنصور نور الدنيا والدين سلطان الاسلام..." (انظر أيضا ابن خلكان ٢: ٦٠).

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣: ٦٥.

(٣) الاعلام ٥: ١٠٩.

(٤) فهرست المخطوطات المصورة ١: ٥٠٢.

صورة مصورة من المخطوطة، وهي تمثل جزءًا من الكتاب الأصلي الذى ألّفه ابن ظافر، وذلك لأنه قد سقطت منها أوراق تشمل معظم الباب الخامس، أي باب الغزل، وهو يقع في ستة فصول لم يتبقّ منها الا صفحة واحدة من الفصل الأول، كما سقطت الفصول الثلاثة الأولى من الباب السادس الذي يدور حول تشبيهات مختلفة ويقع في عشرة فصول، ولم يبق من الفصل الرابع من هذا الباب غير صفحتين وعشرة أسطر.

أما عدد الأوراق التي بقيت فانه يبلغ ٨٤ ورقة، بما في ذلك الورقة الأولى التي لا تحتوي شيئا من أصل الكتاب، وانما كتبت عليها تملّكات تظهر ان الكتاب كان أولا ملكا " لعبد الله ووليه المتوكل عليه والمعتضد به أبي فارس أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين لطف الله به"[1] ... وأبو فارس هذا، فيما أرجّح، هو أحد ملوك السعديين الأشراف أصحاب مراكش، وهو عبد الله الواثق بن المنصور الذي توفي سنة ١٠١٨. وقد صار الكتاب من بعده الى أخيه، اذ جاء على الورقة الأولى " ثم صار لعبد الله زيدان أمير المؤمنين بن أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين بن محمد أمير الموحّدين". وزيدان هذا هو الملقّب بالناصر من الأمراء السعديّين، وقد

---

(١) التشبيهات، الورقة ١.

ملك في فاس من ١٠١٦ ــ ١٠١٩ .

فاذا كانت هذه الورقة من أصل الكتاب، وليس ما يمنع أن تكون كذلك، فانها تدل على ان هذا الكتاب المشرقي كان في حوزة ملوك المغاربة. ولكن النسخة مكتوبة بخط مشرقي لا بخطّ مغربي ممّا يدلّ على انها رحلت الى المغرب منسوخة، وخطّها نسخيّ واضح ، وعناوينها تكتب بخط الثلث الكبير ، والشعر فيها مشكول شكلا جزئيا . وهي ، على وجه عام، قليلة الخطأ، ويتراوح عدد الأسطر فيها بين ١٦ــ١٧ سطرا . غير أن ضيق عرض الصفحة جعل الناسخ أحيانا يفرد للقافية، أو لبعض عجز البيت، سطرا مستقلا، وهذا يجعل عدد الكلمات أقل بكثير مما تستوعبه السطور الكاملة.

والنسخة غير مؤرخة، وليس من السهل تعيين تاريخ مقارب لها، وان كانت التملّكات تدل قطعا على أنها كتبت قبل القرن الحادى عشر .

ورغم ما فيها من نقص ورغم اخلالها بالتاريخ ، فانها مخطوطة فريدة. وقد بحثت طويلا في المظان وفي كتب الفهارس فلم أجد أية اشارة الى أن هناك نسخة أخرى من هذا الكتاب. وقد وجدت ، بعد دراستها، أنها حريّة بالتحقيق للمميّزات التي ذكرتها حين تحدّثت عن قيمة هذا الكتاب في تاريخ البلاغة والنّقد وكتب المختارات الشعرية .

- طريقة التحقيق

من الطبيعي ان تضع النسخة الفريدة للكتاب المخطوط صعوبات جمّة أمام المحقّق. ولكنني حاولت التغلب على هذه الصعوبات بطريقتين: (أ) مقارنة الشعر الذي ورد في هذه النسخة لشعراء من أصحاب الدواوين بما ورد في روايات دواوينهم. وقد حرصت على إثبات الفروق الهامة في الرواية دون تغيير رواية الأصل في النسخة الخطيّة، الا اذا كانت هذه الرواية خطأ بينا. فقد ورد، على سبيل المثال، هذا البيت لابن قلاقس في الصفحة "١٠ ب" من المخطوطة:

دعْ امرأَ القيسِ ودع أفراسَهُ فترُ الهلالِ سرعةً قد قاسهُ

وقد روي هذا البيت في الديوان مثبتا " أمراسه " بدل أفراسه، فاعتمدنا رواية الديوان، لتعلقها بقول امرئ القيس:

كأنّ الثّريا علّقتْ في مصامِها بأمراسِ كتانٍ الى صمِّ جندلِ

وقد أشرت الى مثل هذه التغييرات التي أجريتها في مواضعها.

(ب) عرض الكتاب على ما أشبهه من كتب ألفت في الموضوع نفسه، أعني كتب التشبيه والمختارات الشعرية وخاصة ما كان منها مرتبا على الموضوعات، سواء ألّفت قبله أو بعده. فمن الكتب التي ألفت قبله:

التشبيهات لابن أبي عون وديوان المعاني للعسكري واليتيمة وتتمّة اليتيمة. وأما الكتب التي ألفت بعده فمنها: نثار الأزهار لابن منظور ونهاية الأرب للنويري ومطالع البدور للغزولي وحلبة الكميت للنّواجي. وليس ببعيد ان تكون بعض هذه الكتب قد أفادت من كتاب ابن ظافر لأن ترتيب النقول فيها أحيانا يتفق مع ما جاء في كتابه. غير ان مؤلفيها لم يشيروا الى اقتباسهم عنه.

ولم أقف في التحقيق عند هذا الحد، بل حاولت، استكمالا للفائدة العلميّة، أن أعرّف بالأعلام والمواضع التي تحتاج تعريفا، وأن أشرح بعض الألفاظ التي اعتقدت ان شرحها يسّهل على القارئ فهم النص.

وكنت أرى في كل خطوة من خطوات هذا العمل أنه قد زادني معرفة بالمصادر وفتح أمامي آفاقا جديدة وأسعفني على تحرّي الدقة العلمية فيما ندبت نفسي لانجازه. والله أسأل أن يكون عملي مؤيدا بالتوفيق.

* * *

كتـــــاب

غرائب التنبيهـات على عجائب التشبيهات

تأليـف

علي بن ظافر الأزدي الخزرجي

٢ أ / بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا [محمد][1].

قال عليّ بن ظافر الأزدي ثم الخزرجي: لم أزل في كل أوان وزمان أسمع من أوصاف المآثر الملكية الأفضلية والمناقب النوريّة السلطانية، ما تتأرج بذكره المحاضر ويفتتن به البادي والحاضر، وأشاهد من آثاره ما تثنى عليه الخناصر ويتعجب من صدوره من شخص تألّفت فيه العناصر، فأكاد أطير إلى تلك الحضرة من الشّوق ويهمّ عمرو للتّوق أن يشبّ عن الطّوق، حتى اتفق لي أن مثلت بالحضرة الناصريّة، خلّد الله لمالكها الملك وملّكه الخلد وأمدّه العلوّ وأعلى له الأمر، لعزمة كانت من مهمّات القلب أمضاها وحاجة في نفس يعقوب قضاها، فحللت بمقامه الأسمى مادحا ونزلت على دوحة فضله الباسقة صادحا، فرأيت مجدا يقصر دونه مدى بلاغتي النظم والانشاء وجودا خضرما[2] لا يحتاج وارده الى تطويل الرّشاء[3]، وحلما لا تحلحله رياح الغضب، وعزما لا تذعيه على صولتها القضب، فتغيّرت لما / حللت بجنابه سنن الخبر ولما التقينا ٢ ب صدّق الخبر الخبر، وأهديت الى جنابه الأسمى، نصر الله عزّه وأعزّ نصره وقدّر علوّه وأعلى قدره، تحف مدائحي الغرّ وقصائدي المزرية ببهجة الزهر وعمر النجوم الزهر، وخدمت مقامه بهذا الكتاب الذي ما أظن قريحة أتت

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) بئر خضرم: كثير الماء، ورجل خضرم: كثير الجود والعطاء.
(٣) الرّشاء: رسن الدلو أو الحبل.

بمثاله فيما سلف من الزمن ولا أظن أن أحدا يجمع مثله فيما بعد . وأين من بعد أن قدمت قبله هذه القصيدة وأودعتها نوعا من جنس ما أودعته فيه من غريب التشبيه ، ورفعتها صحبته يوم الأحد لخمس خلون من شهر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمس مايه، بالمعسكر المنصور على تل الحجل بمرج عكا، وهي في صفة المعسكر :

طَرَبْتُ إلى المُعسكَرِ بالشآمِ ومَشيي بينَ أَطْنابِ الخِيامِ
لَدى بِيضٍ قوادِمُهُنَّ تَهفو تَلوحُ لناظِري مثلَ الحَمامِ
كأنَّ الأرضَ أُدْحِيٌّ إذا ما حَكَتْ بخيامِهَا بَيْضَ النَّعامِ
ولاحَتْ خيمةُ السّلطانِ فيها بحُمرَتِها كَبرقٍ في غَمامِ
حَكَتْ وُسطى مَنَالياقوتِ لمّا بَدَوْا مثلَ اللآلي في انتظامِ
وتَحكي رَبْوَةً سُتِرَتْ بِنَبْتِ الشَّقائِقِ حينَ لاحَ مِنَ الكَمامِ
/ عَجِبْتُ لها تَرى الآسادَ تُبدِي الخُضوعَ بها لوافِرَةِ السَّنامِ ٣أ
إذا اصْطَفَّتْ ظِباءُ التُّركِ فيها جَفَوْتُ لحُسْنِهِمْ كلَّ الأَنامِ
ولَو شبَّهْتَ مالِكَها بليثٍ عَجِبْتُ لأُنسِ غزلانٍ قيامِ

وكـمْ بدرٍ بأُفْقِ قناهُ يَسْـري ... يُجرِّرُ ذَيْـلَ شَعْرٍ كالظَّـلامِ

ويَطْعَنُ كلَّ قلبٍ من هَـــواهُ ... سِنانٌ جاءَ من رُمحِ القَـوامِ

ولونُ عَـذارِهِ المُخضَرُّ أضحى ... لحُمْرَةِ خدِّهِ مثلَ الفِـــدامِ

يَخُطُّ لعاشِـقيهِ "لا" وصالٌ ... أَلَـمْ تنظرْ إلى أَلِـفٍ ولامِ

وإنْ جاءَ القِتالُ رأيتَ يومَ الـــ ... ـــرُّكوبِ من الأعاجيبِ العِظامِ

فكم شمسٍ تَجرُّ هلالَ قـــوسٍ ... فيرسلَ محرقًا شُـهبَ السِّهامِ

وكم في النَّقعِ ظبيٌ فوق طِـرْفٍ ... كبدرٍ فوقَ بـرقٍ في ظـــلامِ

وكم من مِغْفَرٍ من فوقِ خـــدٍّ ... بهيٍّ كالحبـابِ على المُدامِ

وكم يهـــتزُّ فيه غديرُ درعٍ ... فيَسقي غصنَ بانٍ من قـــوامِ

وصـوتُ الكوسِ لا تنساهُ رعدٌ ... له قَطرٌ [من](١) النشَّابِ هـــامِ

ويقطعُ مرجَ عَـكَّا كلُّ طلـــبٍ ... كرضوى .....(٢) أو تَهـامِ

ويبدو المرجُ والرَّايات خضرٌ ... يحاكي لونُـه غيثَ الغمـامِ

---

(١) بياض في الأصل .
(٢) بياض في الأصل .

تَرَى حُمْرَ البَيارِقِ فيهِ تُبْدِي عَجاجًا كالدُّخانِ على الضِّرامِ

ولن صُفْرٌ بَدَتْ لكَ في عَجاجٍ رَأَيْتَ التِّبْرَ يَسْكُنُ في الرَّغامِ

٣ ب / ووقتَ الزَّحْفِ تَنْظُرُ كلَّ لَيْثٍ لَدَيهِ سيفُهُ كالنَّابِ دامِ

إذا ما قالَ كمْ حَطَّمْتُ أَلفًا فإنَّ القولَ ما قالتْ حَذامِ(١)

ويُعْذَرُ رُمْحُهُ إن ماسَ سُكْرًا ألمْ يَكْرَعْ مِنَ الدِّمِ في مُدامِ

وعَكّا قد حَكَتْ بِكْرًا شَمُوسًا تَشُذُّ فَفَتْحُها صَعْبُ المَرامِ

وخندقُ عسكرِ الإفرنجِ يحكي عليهِ الخيلُ دُرًّا في نِظامِ

تَراهُ خَلْفَهُ الكُومارُ(٢) تبدو كَمِنْطَقَةٍ عَلَتْ رِدْفَيْ غُلامِ

وخيلُ الشِّرْكِ تَرْكُضُ خلفَهُ في ذيولِ خيامِهِنَّ على الدَّوامِ

يُثِرْنَ إذا رَكَضْنَ عليهِ نَقْعًا بلا فعلٍ حكى سُحْبَ الجَهامِ

فكم مُسْتَأْمِنٍ قد فَرَّ منهمْ لأجلِ الجوعِ أو طولِ المُقامِ

وكمْ من فارسٍ منهمْ قتيلاً ولا قبرٌ لَهُ غَيْرَ القَتامِ

---

(١) حذام هي بنت العتيك بن أسلم، والإشارة الى قول الشاعر:
إذا قالتْ حَذامِ فصَدِّقوها فإنَّ القولَ ما قالتْ حَذامِ

(٢) كذا في الأصل ولعلها من الكَمَر وهو لفظ فارسي معرّب يدلّ على البناء الذي فيه عقد كالجسور والقناطر، وقد تقرأ الكومان.

إذا قِصَفُ الرِّماحِ عليهِ لاحتْ ... بدا مثلَ الحريصِ على الحطامِ

أظنُّ اللّهَ ما أفنـــــاهُ إلاّ ... بسيفِ عليِّ الملكِ الهُمـــامِ

هو الملكُ الجَسيمُ البأسِ أضحى ... يقارنُه مع النِّعـمِ الجســامِ

هو البدرُ الذي ما زال يُدني ... شِهابَ الرّمحِ أو برقَ الحسامِ

تراه سافراً في الحربِ لكـــنْ ... يلوحُ من العجاجةِ في لثـامِ

إذا زُفّت إليه عروسُ حـــربٍ ... جفا في وصلِها طيبَ المنامِ

وسؤددُ نفسِه مازالَ يُـــزري ... بما قد جازَ منه على عِصـــامِ (١)

٤ أ /أيا ملكَ الملوكِ ولا أُحاشـي ... ويا خيرَ الأنـامِ ولا أحامي

عجبتُ لنارِ عزمِك كيفَ تبقـى ... ولا تُطْفَى وبحرُ نَـداكَ طـامِ

وأعجبُ منه أمرُ الناسِ لمّـا ... رأَوكَ وأنتَ كاللّيثِ المُحامي

---

(١) إشارة الى قول النابغة الذبياني :

نفسٌ عصامٍ سوّدتْ عصامـا ... وعلّمتْهُ الكـرَّ والإقدامـا

وصيّرتـــه بطلاً همـاما ... حتى علا وجاوزَ الأقواما

(انظر البيان والتوضيح : ١٠٦).

مَحَلُّ الهَدْيِ في الحَصباءِ قَدْرًا محلُّكَ إذ تُضافُ إلى الكِرامِ (١)

ومن سوّاكَ فضلاً مع مَليكٍ كمنْ سوّى الحُسامَ مع الكَهامِ

وهل نجمُ السُّها في الجوِّ نورًا يُقاسُ ببهجةِ البدرِ التّمامِ

وقد سيَّرتُ نحوكَ بنتَ فكري عروسًا ما تُزفُّ إلى اللِّئامِ

لقد وشَّحتُها بِحُلَى المعاني كما ألبستُها حُلَلَ الكلامِ

وقد أتبعتُها أيضًا كتابًا بعثتُ به إلى الهممِ السَّوامي

أتى ليسوقَ لي سحبَ العطايا كمثلِ الرِّيحِ بالغيثِ الرِّهامِ

فعجِّلْ لي بجودِكَ يا مليكَ الـ ـأنامِ فقد أطلتُ له مُقامي

ودونَكَ فاستمعْ سِحرًا حلالا أتى يُلهي عن السِّحرِ الحرامِ

فخيرُ الشِّعرِ أكرمُه رجالاً وشرُّ الشِّعرِ أقوالُ الطَّغامِ

وعشْ لا زلتَ مُجْتَنِبَ الرَّزايا ودُمْ لا زلتَ مرعيَّ الذِّمامِ

---

(١) الهدي: ما أهدي إلى البيت الحرام من النعم . والحصباء الحصى . وفي الحديث أن عمر بن الخطاب أمر بتحصيب المسجد ليكون أوثر للمصلين ؛ والمحصّب أو الحصاب هو موضع رمي الجمار بمنى .

٤ ب / بسم الله الرحمن الرحيم، عونك اللّهم ،

أما بعد حمد الله العزيز القهّار، عالم خفايا الأسرار وبوادى الاجهار، المنزّه سبيله[1] عن الإشهار والإضهار، مقدّر كل ما يحدث في سواد الليل وبياض النهار ، المتكفّل للإسلام بأعلى المنار ، المؤلف بين قلوب أهله فأصبحوا بنعمته إخوانا بعد أن كانوا على شفا جرف من النار ، الذى لا ينجو مما قدّره دان ولا عال، ولا يحصّن مما يريده سهول الظباء ولا أوعار الأوعال . أشهد انه لا اله الا هو الكبير المتعال والصّلاة على محمّد نبيّه وعبده وعلى أصحابه الذين هم أفضل الخلق من بعده ، فان الأرض لما أخذت زخرفها وازّيّنت ، وظهرت علامات سعدها وتبيّنت، وتسلّمت من الخطوب كتاب أمانها، وعاد ربيعا كلّ زمانها، وتحلّت بعقود من جواهر زهرها النّضر ، وطال عمر ربيعها الخضر ، وأصبحت لأهلها بعد أن طالت شراستها، ولانت لأربابها لما حسنت سياستها، ووصلت لأرباب الفضائل وكانت هجرت، وهبّ عليهم نسيم أصائلها
٥ أ بعد أن هجرت، ويسّرت عليهم / أمورهم وكانت عسرت، وأطلقتهم من وثاق الفقر بعد أن قسرت وأسرت، وجبرتهم من صدع النوائب حين حطمت وكسرت، وسكّنت عنهم بحار الخطوب بعد أن طمت ، وأوقفت دونهم رياح الفتن بعد أن حطمت، وأعادت محجّتها بيضاء من الحق وكانت سوداء من الباطل، وأوفت أهل

---

(١) غير واضحة في الأصل .

الفضل ديونهم، وكم أوفت على الغريم المماطل، بما شملها من أيام مولانـــا السلطان العادل، الملك النّاصر صلاح الدنيا والدّين منقذ بيت الله المقدّس من الكفرة المشركين أبي المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنـين الذى ملكها فما جار بل عدل، وسلكها فما حاد عن طريق الحق ولا عـــدل، وأثارت رياح عزائمه سحاب جوده وسرّت الدنيا وسائر أهلها بوجوده، وأحيا طلل /العدل/[1] وكان داثرا وشعر بفضله فأضحى بسيفه ... ...[2]

والرؤوس من الكماة ناظما ناثرا، ونجله الملك الأفضل، العالم العادل المجاهد

٥ ب المرابط المؤيّد المظفر المنصور نور الدنيا والدين سلطان الاسلام/والمسلمين محيي العدل في العالمين منصف المظلوم من الظالمين قامع الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين قسيم الدولة فخر الأمة مجير الملّة ناصر أمـــير المؤمنين، الذى سرت مآثره شهبا في ظلمات الخطوب، وظهرت مكارمه بشـرا في وجه الزمان بعد كثرة القطوب، وادلجت بنات الأفكار في ليل النوائـب إليه فحمدت عند الصباح وجه السّرى وأقسم الزمان بأن نظير مجده ما رآه ولا يرى :

فإذا نظرتَ إليهِ قلـتَ كأنّـه بدرُ الدُّجى إن لاحَ أو ليثُ الشّرى

---

(١) بياض في الاصل .
(٢) في الأصل بياض بمقدار كلمتين .

فللّه هو من ملك ما أوسع صدره وأفسحه وأعذب لفظه وأفصحه، وأمنع جاهه وأحصنه وأجمل أدبه وأحسنه ، وأسحّ جوده وأمطره وأطيب ذكره وأعطره ، إن ذكرت الكرم[1] فهو أوسه وحاتمه* وان ذكرت ....[2] فاتحه وخاتمه، أو وصف البأس فعنترة فيه خادمه ، أو اختالت به الأندية والمحافل زهت به الكتائب والجحافل، أو ازدانت به الطروس والأقلام ارتاحت له البنـــود والأعلام، وجب على من شملته /حاشيتا دولته وضمّته حسن ايالته أن يبـذل ٦ أ
جهده في الخدمة بما تصل قدرته اليه ، ويرجو به حسن الزّلفى لديه . ولما كان المملوك ممن تشرف بوطء البساط الكريم وتميز بانتسابه الى المقام العظيم، تأكد الوجوب عليه في توالي ما يخدم به من خدمه وتعيّن له ذلك لأن يلتحق بمن اشتهر بأوليته في الخدمة وقدمه ، فنظر فيما يخدم الجناب الأسمى زاده

---

(١) سقطت من الأصل .
(٢) بياض في الأصل .

---

* الاشارة الى أوس بن حارثة بن لأم الطائي، وهو رأس طيء وقد عـــاش حوالي ١٠٠ سنة، وحاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائـــي، وهما من أجواد العرب يضرب المثل بكرمهما وسخائهما . (المحبّر: ١٤٥، وانظر الاشتقاق لابن دريد) .

الله سموا وعلوا، فوجد فنّ التشبيه بين الأشعار عالي القدر نابه الذكر، لا يمكن كل الناس سلوك جادته ولا يقدر الا اليسير منهم على إجادتـــه، حتى استهوله أكثر الشعراء واستصعبه وأبى بعضهم أن يجهد بأن يسرّض مصعبه، وقالوا: إذا قال الشاعر كأنّ ظهر فضله أو جهله . ولم يجـــد أحدا من المؤلفين ولا مصنفا من المصنفين اشتغل بتمييز ذهبه (١) عن مـــدره (٢) ولا خاض في بحاره لاستخراج دره، ولا انتقى خلاصته من خبثه ولا فصّل جده من عبثه، فاختار هذا المجموع، شهد الله، من أكثر من خمـــس عشرة ألف ورقة، /وجمع فيه جملا من غرائب أبياته ومعجزات آياته، ليكون ٦ ب
أنسا للمجلس الأسمى في هذا الوقت وأمثاله، وطليعة لما بعده، ممّـــا يرد عليه الأمر باقتفاء مثاله . واختصره غاية الاختصار واقتصر على المحاسن أشد الاقتصار، لمعرفته باشتغال المجلس الأسمى بتدبير الكتائب وتجهيز العساكر والمقانب، وحسن القيام بايالة الخلائق وتعلّقه من أمر الحـــروب بأشد العلائق . والمملوك يستعين بالله تعالى ويسأله أن يرزقه من المجلس موافقة الغرض ويقوّيه من الخدمة على أداء المفترض. وهذا حين نبتـــدي

---

(١) في الأصل: ذهنه .
(٢) المدر: قطع الطين اليابس المتماسك .

مستعينا بالله ومتوكلا عليه راغبا في العصمة من الغلط اليه ، بعد تسمية الكتاب وتبويبه وتنميق مقصده وترتيبه . أما الاسم فغرائب التشبيهات على عجائب التشبيهات ، ومقصود الكتاب ينحصر في ستة أبواب :

الباب الأول في تشبيه الأجرام العلوية ،

الباب الثاني في تشبيه المياه والأنهار ،

٧ أ / الباب الثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات ،

الباب الرابع في التشبيه الواقع في الخمريات ،

الباب الخامس في التشبيه الواقع في الغزل ،

الباب السادس في تشبيهات مختلفة .

الباب الأول

في تشبيه الأجرام العلوية

البـــاب الأول

فـــي تشـــبيه الأجـرام العلويـة، وفيـه عشـرة فصـــول .

الفصـل الأول :

في ذكر التشبيه الواقع في الهـلال .

من أحسن ما قيل فيه قول ابن المعتز من مزدوجتـه (١) :

وقد بَدَتْ فوقَ الهلالِ كُـرَّتُـه كهامـةِ الأسودِ شابتْ لحيتُـه

وكذلـك قولـه (٢) :

أهلاً بغطـرٍ قد أنارَ هلالُـهُ الآن فاغدُ على الشـرابِ (٣) وبكّـرِ

وانظرْ إليه كـزورقٍ من فضـةٍ قد أثقلتْهُ حمولةٌ من عنـبرِ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٤: ٦٧ والرواية فيه :

إذا الهـلالُ فارقتْـه ليلتُـه بدا لمـن يبصُره وينعتُـه
كأنـه أسـمرُ شابت لحيتُه

والتشبيهـات لابن أبي عون: ١٣ ، وديوان المعاني ١: ٣٤٠ .

(٢) ديوان ابن المعتز ٤: ٩٨ وأوراق الصـولي: ٢٦١، وابن أبي عون: ١٢ ونثار الازهار: ٥٦ وديوان المعاني ١: ٣٤٠، والبيت الثاني في نهايـة الارب ١: ٥٣ .

(٣) ديوان المعاني: فالآن ... الى المـدام .

وأخذ هذا المعنى ظافر الحدّاد* فقال من قطعة :

والجوُّ من شَفَقِ الغروبِ مُفَرْوَزٌ كحديقةٍ حُفَّتْ بوردٍ أحمرِ

وبدا الهلالُ لِلَيْلَتينِ كأنّه فِتْرٌ حوى تفّاحةً من عنبرِ

وأخذ قول ابن قلاقس** قول ابن المعتز وزاد عليه زيادة من قبل الصنعة فقال :(١)

٧ ب / أُنظرْ إلى الشّمسِ فوقَ النّيلِ غارسةً وانظُرْ لما بعدَها من حمرةِ الشّفقِ

غابتْ وأبقتْ شعاعاً فيه يَخْلُفُها كأنّما احترقتْ بالماءِ في الغَرَقِ

وللهلالِ فهل وافى لِيُنْقِذَها في إثرِها زورقٌ قد صيغَ من ورقِ

ومن هذا الإعجاز قول ابن با منصور الدّيلمي*** أنشده الثعالبي في تتمة اليتيمة:(٢)

وحاكى هلالُ الأُفقِ في أعينِ الورى مراةً تبدّى بعضُها من غِلافِها

---

(١) ديوان ابن قلاقس : ٧٥ وبدائع البدائه ١ : ٢٤٥ .

(٢) تتمة اليتيمة ١ : ٤٤ ، والرواية فيها :

ولاحَ هلالُ الفطرِ نضوًا كأنه مراةٌ تجلّى بعضُها من غلافِها

---

* هو أبو المنصور ظافر بن القاسم الجروى الجذامي الاسكندري المعروف بالحداد . شاعر مصري مشهور . توفي سنة ٥٢٩ . (انظر ابن خلكان ٢ : ٢١٩ والخريدة (مصر) ٢ : ١) .

** هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الملقب القاضي الأعز . ولد في الاسكندرية سنة ٥٣٢ . كان شاعرا مجيدا وفاضلا نبيلا . اتصل بالسلفي وانتفع بصحبته ومدحه ، كما قصد القاضي الفاضل ومدحه . توفي سنة ٥٦٧ . (ابن خلكان ٥ : ٢١) .

*** قال الثعالبي فيه : ديلمي الأصل عراقي المنشأ شامي الوطن بارع الشعر بديعه . (تتمة اليتيمة ١ : ٤٤) .

ومما ينسب الى ابن المعتز هذه الأبيات:(١)

قُمْ فَاسْقِني الخَمرَ يا نديمي ... فإنّها آفةُ الهُمومِ
فقد تبدّى هِلالَ شهرٍ ... قدومُهُ أيمنُ القُدومِ
كأنّه في السماءِ فخٌّ ... ينتظرُ الصَّيدَ للنّجومِ

وزاد عليه القاضي التنوخي* فقال:

إسْقِني واسقِ صاحبي ... بأَكُفِّ الكَواعِبِ
مِن مُدامٍ مزجتُها ... بدموعِ السَّحائِبِ
والهلالُ الذي يلوحُ خلالَ السَّحائِبِ
٨أ / مثلَ فخٍّ من اللّجينِ لصَيدِ الكواكبِ

---

(١) البيت الأخير في نثار الازهار: ٥٤٩ والرواية فيه:
فخٌّ بوسطِ السماءِ ملقىً ... ينتظرُ الصَّيدَ للنجومِ

---

* هو أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم من أعيان أهل العلم والأدب. ولي قضاء البصرة والأهواز بضع سنين وكان من ندماء الوزير المهلبي المقربين. (اليتيمة ٢: ٣٣٦).

وقال أبو بكر الخالدي* وقصّر:(١)

رُبَّ ليلٍ فضحتُه بِصَبَاءِ(٢) الـ ـرَّاحِ حتى تركتُه كالنَّهارِ
ذي سماءٍ كخُرْمٍ(٣) ونجومٍ مُشْرِقاتٍ كنرجسٍ وبَهارِ
وهلالٍ يلوحُ في ساعدِ الغربِ كدورٍ(٤) فضّةٍ أو سوارِ

وأجود منه قول الأمير تميم** وان كان مأخوذا منه:(٥)

ربَّ صفراءَ علَّلتْني بصفراءَ وجنحُ الدُّجى خليعُ الإزارِ(٦)

---

(١) اليتيمة ٢: ١٩٣ والبيت الأخير في نثار الأزهار: ٥٠.
(٢) صبأ النجم: خرج من مطلعه وظهر. ورواية اليتيمة: بضياء.
(٣) الخرم: نبت كالنوبياء بنفسجي اللون.
(٤) كذا في الأصل ولم أعثر لها على معنى ولعلها تصحيف دملوج وهي رواية اليتيمة والنثار.
(٥) ديوان تميم: ١٨٣.
(٦) الديوان: وجنح الظلام جون الازار.

---

* هو محمد بن هاشم بن وعلة بن عثمان الخالدي، أخو أبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي، وقد اشترك معه في كثير من الشعر ونسب اليهما معا. وكلاهما من خواص سيف الدولة وقد كانا خازني كتبه. توفي ابو بكر سنة ٣٨٠. (الوفوات ٢: ٥٣٦، واليتيمة ٢: ١٨٣).

** هو أبو علي تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي الفاطمي. كان شاعراً ماهراً ولم يل المملكة لان ولاية العهد كانت لاخيه العزيز. اختلف في تاريخ وفاته فقيل انه توفي سنة ٣٦٨، وهو قول ابن الجوزي، وقيل بل سنة ٣٧٤، وهو قول ابن خلكان، وقال غيره: بل توفي سنة ٣٧٥. (اليتيمة ١: ٣٠٨ والمنتظم ٧: ٩٣ وابن خلكان ١: ٣٦٩).

وكأنَّ الدّجى غدائرُ شَعْرٍ وكأنَّ النجومَ فيهِ مَداري

وأنجلى الغَيْمُ عن هلالٍ تبدّى في يدِ الأُفْق مثلَ نصفِ سوارِ

وأخذه علي بن محمد بن حبيب التميمي من قصيدة (١):

ولا ضوءَ إلا من هلالٍ كأنّما تفرّقَ منه الغيمُ عن نصفِ دُمْلُجِ (٢)

وأخذه الشريف أبو الحسن علي بن اسماعيل الزّندى القيروانيّ* فقال من قصيدة (٣):

كأنّ طلوعَ أنجمِهِ كؤوسٌ سقى الشّرقُ الغروبَ بها عُقارا

وفي ذيلِ الغروبِ سليلُ شمسٍ (٤) كما شطرتْ مُنعَّمَةٌ سِوارا

---

(١) معاهد التنصيص ١: ١٤٠ منسوبا للقليوبي الكاتب.
(٢) الدملج والدملوج: حلي يلبس في المعصم.
(٣) مسالك الابصار ١١، الورقة: ٣١٦.
(٤) المسالك: ليل.

---

* هو أبو الحسن علي بن اسماعيل بن زيادة بن محمد الطارئ. قال فيه ابن رشيق: كان شاعرا حسن الاهتداء قليل المدح والهجاء، ملوكي الشعر جيّد التشبيه، وصاحب ملح وفكاهات، أشبه الناس طريقة في الشعر بكشاجم. (المسالك ١١، الورقة: ٣١٦).

وأخذه نشؤ الملك بن المنجم* وزاد عليه وذكر غروب الشمس فقال:(١)

٨ ب / وعَشِيٍّ كأنّما الأُفقُ فيهِ لازوردٌ مرصَّعٌ بنُضارِ(٢)

قلتُ لمّا دَنَتْ لمغربِها الشَّمسُ ولاحَ الهلالُ للنُّظّارِ(٣)

أقرضَ الشَّرقُ صِنْوَهُ الغربَ دينارًا(٤) فأعطاهُ الرَّهْنَ نِصفَ سوارِ

ومن الشعر الذى تظهر عليه الشطارة قول مؤيد الدين الطّغرائي** أبي إسماعيل:(٥)

قوموا الى لذّاتِكُمْ يا نَدامْ وأَتْرِعوا الكأسَ بصَفْوِ المُدامْ

---

(١) نثار الأزهار: ١٠٨ والبدائع ١: ٢٣١، والبيتان الاخيران في نهاية الأرب ١: ٥٣ دون نسبة.

(٢) الرواية في نثار الازهار:
وعشاءٍ كأنّما الجوُّ فيه لازوردٌ مضمَّخٌ بنُضارِ

(٣) نثار الازهار: هوت.

(٤) نثار الازهار: ضده.

(٥) ديوان الطغرائي: ١١٩، ورواية البيت الاول فيه:
قوموا إلى لذّاتِكم يا نِيامْ ونبِّهوا العودَ وصَفّوا المُدامْ
ونثار الازهار: ٥٠.

---

* سماه في الخريدة نشوّ الدولة علي بن مفرج المنجم ومدح أدبه وشعره الآن ما أفسد حاله هو مجونه ولهوه. وقد أكثر ابن ظافر من أخباره في بدائع البدائه. توفي سنة ٦٢٠. (الخريدة (مصر) ١: ١٦٨، وحسن المحاضرة ١: ٣٢٦).

** هو العميد فخر الكتاب أبو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد مؤيد الدين الأصبهاني المعروف بالطغرائي. وزير وكاتب من وزراء السلاجقة. له ديوان شعر مطبوع وأشهر ما فيه قصيدته المعروفة بلامية العجم. قتل سنة ٥١٥ على اختلاف في ذلك. (ابن خلكان ١: ٤٣٨).

هٰذا هِلالُ الشَّهرِ قد جاءَنا (١) بِمِنْجَلٍ يَحْصُدُ شهرَ الصِّيامْ

وقال ابن وكيع* من قصيدة :

ولاحَ لي هِلالُها كَقَوْسِ رامٍ إذ مَغَطْ

أو حاجبٍ ذي شَمَطٍ ظَلَّ من التِّيهِ يُمَطْ

وزاد المملوك على هذا زيادة من طريق الصنعة فقال:

أُنظُرْ لحسنِ هلالِ الجوِّ كيفَ سوى إلى منازلِهِ في غايةِ الصِّغَرِ

كأنَّما قوسُهُ ما بين جَبْهتِهِ وطَرفِهِ حاجبٌ قد شابَ من كِبَرِ

وقال ابن حمديس** في طلوع الهلال عند السحر في أواخر

---

(١) الديوان ونثار الأزهار : هلال الفطر .

---

* هو أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع الضبّي التنيسي . شاعر بغدادي الاصل . من أشهر مؤلفاته كتاب "المنصف" الذي بين فيه سرقات المتنبي. ولد وتوفي في تنيس سنة ٣٩٣ . (اليتيمة ١: ٣٧٢، وابن خلكان ١: ٣٧٧).

** عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي . شاعر مشهور من أهل صقلية، دخل الأندلس سنة ٤٧١، ومدح المعتمد ابن عباد، وله ديوان شعر مطبوع. توفي بميورقة، وقيل ببجاية، سنة ٥٢٧ . (ابن خلكان ٢: ٣٨١ ومقدمة الديوان).

الشهر وأجاد:[1]

وربِّ ليلٍ سَهِرناهُ[2] وقد طَلعتْ[3] بقيَّةُ البدرِ في أُولى بَشَائرِهِ

٩أ / كأنَّما أدهمُ الإظلامِ[4] حين نجا من أشهبِ الصُّبحِ ألقى نعلَ حافرِهِ

ومما ينسب الى ابن المعتز:[5]

قُمْ يا غلامُ فهاتِها كرخيَّةً حمراءَ تحكي حُمْرةَ الماذِيِّ

وانظرْ إلى حُسنِ الهلالِ كأنَّهُ نونٌ مُذَهَّبَةٌ على فيروزَجِ

وقال السَّري* من قطعة:[6]

ضَحِكَتْ أوجهُ اللَّذاذةِ بالقَطْـ ـرِ ولاحتْ طوالعُ السَّرَّاءِ

وكأنّ الهلالَ نونُ لُجينٍ غَرِقتْ في صحيفةٍ زرقاءِ

---

(١) ديوان ابن حمديس: ١٩٢ ورفع الحجب ١: ١٠٤ ونهاية الأرب ١: ٥٣.
(٢) نهاية الارب: صبح.
(٣) ديوان ابن حمديس ونهاية الارب: رقبناه.
(٤) الديوان: الظلماء.
(٥) لم ترد في ديوان ابن المعتز وأوراق الصولي وتشبيهات ابن أبي عون. انظر أبياتا مشابهة للشريف العقيلي في ديوانه: ٩٠ ونثار الأزهار: ٦٠.
(٦) ديوان السري: ٢١ ونثار الأزهار: ٥٥، وفي نهاية الأرب ١: ٥٤ دون نسبة.

* هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي، المعروف بالرفاء، وهي صنعته، شاعر وكاتب من أهل الموصل، له امداح في سيف الدولة وغيره من أمراء بني حمدان، ثم انحدر الى بغداد. له ديوان شعره وكتاب "المحب والمحبوب" و"المشموم والمشروب". توفي ببغداد بعيد سنة ٣٦٠ (تاريخ بغداد ٩: ١٩٤ واليتيمة ٢: ١١٧ وابن خلكان ٢: ١٠٤).

وأخذه الوأواء* فقال:(١)

هلالُها من خَلَلِ السَّحابِ كَمُذْهَبِ النُّونِ من الكتابِ

أو طَرَفِ السَّيفِ من القِرابِ

وأخذه أبوعبد الله بن الحداد الأندلسي** أخذا عجيبا فقال:(٢)

وبدا هلالُ الفطرِ فيها سائراً وسطَ السَّماءِ كأنَّهُ العُرْجونُ(٣)

فكأنَّ بازَ(٤) الصَّومِ خطَّطَ(٥) نحوه خطّاً دقيقاً(٦) بانَ منهُ النُّونُ

---

(١) ديوان الوأواء: ٢٨.
(٢) نفح الطيب ٤: ٢٠١ ورواية البيت الأول فيه:
وبدا هلالُ الأفقِ أحنى ناسِخاً عهدَ الصِّيامِ كأنه العرجونُ
(٣) اشارة للآية: "والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم". والعرجون هو عذق النخل الذى يعوج ويبقى على النخل يابساً بعد أن تقطع عنه الشماريخ.
(٤) النفح: بين.
(٥) في الأصل خطّ والتصحيح من النفح.
(٦) النفح: خفيّا.

---

* هو أبو الفرج محمد بن أحمد ـ وقيل محمد ـ الوأواء الغساني الدمشقي من حسنات أهل الشام، وهو شاعر مطبوع عذب الاستعارة جيد التشبيه. توفي في حدود سنة ٣٩٠. (اليتيمة ١: ٢٨٨ والفوات ٢: ٣٠١).

** هو أبوعبد الله محمد بن أحمد الحداد. اتصل ببني صمادح ثم بني هود ومدحهم. ألف كتابا في العروض مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية. (الذخيرة ١/ ٢: ٢٠١).

وأخذه ظافر الحداد فقال:

لمّا تجلّى هلالُ العيدِ عادَ بما ... قد كنتُ آنَسُ من لهوٍ ومن طربِ

٩ ب / يَلوحُ في الأُفقِ الغربيِّ من شَفَقٍ ... كالنّونِ خُطَّتْ على لوحٍ من الذّهبِ

وللسري الموصلي وأجاد:(١)

ألا عُدْ لي بباطِيَةٍ وكاسِ ... وَرُعْ همّي بإبريقٍ وطاسِ

وذَكِّرْني بشِعْرِ أبي نُؤاسٍ ... على روضٍ كشعرِ أبي فِراسِ

وغيمٍ مُرْهَفاتُ البرقِ فيهِ ... عَوارٍ والرِّياضُ بهِ كَواسِ

وقد سَلَّتْ جُيوشُ القطرِ فيه ... على شَهرِ الصِّيامِ سيوفَ باسِ

ولاحَ لنا الهلالُ كشَطْرِ طوقٍ ... على لَبّاتِ زرقاءِ اللِّباسِ

وقد أرى في هذا على قول ابن المعتز:(٢)

وكأنّ الهلالَ طوقُ عروسٍ ... تتجلّى على غلائلَ سودِ

---

(١) ديوان السري: ١٥٢، والبيتان الأخيران في نثار الأزهار: ٤٩. والبيت الأخير في نهاية الأرب ١: ٥٤ دون نسبة.

(٢) معاهد التنصيص ١: ١٣٨ والرواية فيه: وهلال السماء ... بات يجلى ...

وقال ظافر الحداد وأجاد:[١]

أما تَرَوْنَ[٢] هِلالَ العيدِ حين بدا ... لِلعَيْنِ منهُ بقايا جِرْمِ دائِرِهِ

كَحَرْفِ جامٍ من البلّورِ قابَلَهُ ... ضوءٌ وأخفى الدُّجى إشراقَ سائِرِهِ

أو درهمٍ فوقَ دينارٍ تَجَلَّلَهُ ... سترًا[٣] وضاقَ عن استيعابِ آخِرِهِ

١٠ أ / وقال ابن المعتز من قصيدة:[٤]

ولاحَ ضوءُ هلالٍ كادَ يَفْضَحُنا[٥] ... مثلَ القُلامَةِ قد قُدَّتْ من الظُّفُرِ

وقال علي بن محمد بن حبيب التميمي من قصيدة:

في ليلةٍ أُنُفٍ كأنَّ هلالَها ... صَدْعٌ تَبيَّنَ في إناءِ زُجاجِ

كَمِلَ الزَّمانُ لأختِها بزيادةٍ ... في نورِهِ فأتى كوِقْفِ[٦] العاجِ

---

(١) نثار الأزهار: ٥١.
(٢) نثار الأزهار: رأيت.
(٣) نثار الأزهار: علوا.
(٤) أوراق الصولي: ١٨٨، ديوان المعاني ١: ٣٤٠، نثار الأزهار: ٤٩، والشطر الثاني من البيت في الذخيرة ١/ ٢: ٥١.
(٥) ديوان المعاني: يفضحه.
(٦) الوقف: السوار.

وقال من أخـــرى :

فلمّا قضى منه السَّحابُ قضاءَهُ وأمكنَ في تحديقهِ كُلُّ ناظـرِ

بدا مُسْتَدَقَ الجانِبَيْنِ كأنّـــه على الأُفقِ الغربيِّ مِخْلَبُ طائرِ

وهو من قول ابن وكيـــع :

طافَ بها يجلو ظَـلامَ الغَيْهَبِ كالبدرِ يمشي في الدُّجى بكوكبِ

وقد بدا ضوءُ هلالٍ أحـــدبِ يلوحُ فـي الجوِّ كقَرنَيْ عقـربِ

كمِنْسَـرٍ من طائـرٍ أو مخلبِ

وقال التميمي أيضا من قصيـدة :

إذا اسْتَثْبَتَتْهُ العينُ لاحَ كأنَّـه وقد كادَ يخفى في الدُّجى خَطُّ مُفْرِقِ

١٠ ب / وأَضْمَرَهُ الإسْآدُ(١) حتى كأنّـه على الأُفقِ الغربيِّ قوسُ مُفَـوَّقِ(٢)

وقال ابن وكيع من قطعة :

يلوحُ لـي هلالُهـــا كمثلِ نصـفِ السِّوَارَهْ

---

(١) الاسآد : سير الليل كله .
(٢) فاق وفَوقَ السهم : كان به ميل أو انكسار في الفُوق ، والفوقُ هو مِشـق رأس السهم حيث يقع الوتر .

الفصل الثاني :

في تشبيهه مع الثريا وسائر النجوم .

ومن أحسن ما سمع المملوك في ذلك هذان البيتان وهما منسوبان الى ابن المعتز :

كأنّما الليلُ والهلالُ وقد ... بدتْ نجومُ السّماءِ مُنْقَضّهْ

رامٍ من الزّنجِ قوسُهُ ذهبٌ ... يَنْثُرُ منه بنادقَ[1] الفِضّهْ

وقال ابن قلاقس فيه وفي النجوم من قصيدة :

أَلَمّ وقلبُ البرقِ في الجوِّ خافِقٌ ... حذارًا وطَرْفُ النجمِ في الجوِّ ساهِدُ

وفي جيدِ زِنْجيِّ الدّجى من هلالِهِ ... وأنجمِهِ طوقٌ له وقلائِدُ

وقال أيضا فيه وفي الثريا[2] :

يا رُبَّ ليلٍ قد قضى لباسَهْ ... لم يلبثِ النّجمُ بهِ أن جاسَهْ

دعِ امرأَ القيسِ ودَعْ أمراسَهْ[3] ... فِتْرُ الهلالِ سرعةً قد قاسَهْ

---

(١) البنادق : ما يرمى به .

(٢) ديوان ابن قلاقس : ٥٧ . ورواية البيت الأول فيه :

يا رُبَّ ليلٍ أشتهي لباسَهْ ... قد عطّرَ الوصلُ لنا أنفاسَهْ

(٣) في الأصل أفراسه ، والتصحيح من الديوان ، ناظرا الى قول امرئ القيس :

كأنّ الثريا عُلّقَتْ في مصامِها ... بأمراس كتّانٍ إلى صمِّ جندلِ .

١١أ / منكّسًا نحو الثريّا راسَهْ هل تَعرِفُ العرجونَ والكباسَهْ[١]

وهذا غاية في الجودة ؛

وقال مؤيد الدين الظغرائي فيه وفي الثريا[٢] :

وترى الثريا والهلالَ مُظاهِرًا بمُعَنْبَرٍ في حُلَّةٍ[٣] ومُجَسَّدِ

كالدُّرِّ[٤] فُصِّلَ في وشاحٍ خريدةٍ حسناءَ تُجْلى في نقابٍ أسودِ[٥]

وكأنّه وكأنّها من فوقِهِ[٦] عنقودةٌ في زورقٍ من عسجدِ

ولأبي عاصم البصري* فيه وفي الثريا والزهرة وأحسن[٧] :

رأيتُ الهلالَ وقد أحدقَتْهُ[٨] نجومُ الثريّا[٩] لكي تَسْبِقَهْ[١٠]

---

(١) الكباسة : العذق وهو من النخل كالعنقود من العنب .
(٢) ديوان الظغرائي : ١٢٠ .
(٣) الديوان : في حليتيه .
(٤) الديوان : كالحب .
(٥) الديوان : حسناء تطلع في وشاح أسود .
(٦) الديوان : فكأنها وكأنه في جنبها .
(٧) اليتيمة ٢ : ٣٦٩ ونثار الأزهار : ٥٠ ومعاهد التنصيص ١ : ١٤٠ ونهاية الأرب ١ : ٥٤ .
(٨) نثار الأزهار : حلقت ، نهاية الأرب : أحدقت .
(٩) معاهد التنصيص : السماء .
(١٠) نثار الأزهار : تلحقه .

* أبو عاصم البصري من شعراء اليتيمة . (اليتيمة ٢ : ٣٦٩) .

فشبَّهْتُهُ وهو في إثرِهـــا وبينَهمـا الزّهـرةُ المشرقَهْ

بقوسٍ لرامٍ رمى طائـــرًا فأتبـعَ في إثرِهِ بُنْدُقَـــهْ

وله فيـه وفي الزّهرة :(١)

قارَنَ الزهرةَ الهلالُ فكانـا(٢) في افتراقٍ من غيرِ صدٍّ وهجرهْ(٣)

فإذا ما تقاربا قلـتَ طـوقٌ من لجينٍ قد رُكِّبَتْ فيه دُرَّهْ(٤)

وقال الوأواء من قطعة :(٥)

ما تَرى الصّبحَ كيف قد غلبَ اللّيـــلَ وقد أقبـلَ النّسيمُ العليلُ

وكأنَّ الهلالَ تحـتَ الثريـّا ملكٌ فـوقَ رأسِـهِ إكليـلُ

---

(١) اليتيمة ٢: ٣٦٩ ونثار الأزهار : ٥٦ .
(٢) نثار الأزهار : قارنت زهرةُ الهلالَ وكانا .
(٣) اليتيمة : ما بين صد وهجرهْ .
(٤) اليتيمة : فإذا ما تقارنا ... قد علقت .
(٥) نثار الأزهار : ٥٥ دون نسبة، والبيت الثاني في ديوان الوأواء : ١٧٨ ونهاية الأرب ١: ٥٤ .

وللأمير أبي الفضل الميكالي* فيه وفي الزهرة :(١)

١١ ب / أما ترى الزّهرةَ قد لاحتْ لنا تحتَ هلالٍ ضوؤُهُ(٢) يحكي اللَّهَبْ

كَكُرَةٍ مَجْلُوَّةٍ من فضّةٍ(٣) أوفى عليها صولجانٌ من ذهبْ

وقال ابن المعتز فيه وفي الثريا :

زارني زائري وقد هَرِمَ اللّيـ ـلُ ودَبَّ المشيبُ في عارضَيْهِ

وكأنَّ الهلالَ نِصفُ سوارٍ والثريا كفٌّ تشيرُ إليهِ(٤)

وينسب إليه من قطعة فيها :(٥)

يتلو الثريا كفاغرٍ شَرِهٍ يفتحُ فاهُ لأكلِ عنقودِ

---

(١) اليتيمة ٤ : ٣٧٣ والفوات ٢ : ٥٧، ونثار الأزهار : ٥١ .
(٢) اليتيمة والفوات : لونه .
(٣) اليتيمة : ككرة من فضة مجلوة .
(٤) ورد هذا البيت في نثار الأزهار : ٥٦ منسوبا لابن الرومي .
(٥) أوراق الصولي : ١٨٧ وديوان المعاني ١ : ٣٣٤ ومعاهد التنصيص ١ : ١٣٨ . وفي نهاية الأرب ١ : ٥٣ دون نسبة .

---

* هو عبيد الله بن أحمد بن علي بن اسماعيل، أمير خراساني، كان حسن الخلق، سخي النفس كثير القراءة . له من التصانيف "المنتحل" و"مخزون البلاغة" و"ملح الخواطر ومنح الجواهر"، وله ديوان شعر وديوان رسائل. (اليتيمة ٤ : ٣٥٤، والفوات ٢ : ٥٢).

وقال المملوك فيه وفيها من قطعة :

والليلُ قد أبدى الثريّا جُنْحُه ... فكأنّه موسى يَضُمُّ يمينَهُ

وكأنَّ بحرَ الليلِ دَرْجٌ[1] أسودٌ ... خطَّ الهلالُ بهِ بتبرٍ نونَهُ

وقال أيضا فيه وفيها وفي الليل من قطعة :

ولاحَ ظلامُ الليلِ فيهِ هلالُهُ ... ونجمُ الثريا للغروبِ قداقتربْ

كأدهمَ نهدٍ[2] ذي لجامٍ مُفَضَّضٍ ... على ظهرِهِ قد شُدَّ سَرْجٌ من الذَّهبْ

وقال أيضا في صباه فيه وفي الليل وفي النجوم :

أنظرْ إلى جوِّ السماءِ وقد بدا ... فيهِ الهلالُ لدى نجومٍ كاللَّهبْ

١٢أ / وكأنَّ جُنْحَ الليلِ ثورٌ أبلقٌ ... وهلالُه فيهِ قرونٌ من ذَهَبْ

وقال أيضا من قطعة :

ولاحَ في الغربِ هلالٌ حكى ... مع الثريّا في الدُّجى حين لاحْ

فخَّ نُضارٍ قد رأى شخصَهُ ... طيرٌ فأهوى نحوهُ بالجَنَاحْ

---

(١) الدرج : ما يكتب فيه .
(٢) النهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم .

والبيت الثاني فيه زيادة على قول ابن المعتز[1]:

كأنّه في السماءِ فَـخٌّ ينتظرُ الصَّيدَ للنُّجومِ

---

(١) أنظر الصفحة : ١١٩.

الفصل الثالث :

في تشبيهه عند انتصافه وكماله وفي حالات مختلفة .

قال أبو بكر الخالدي فيه عند تستره بالغيم وأجاد :(١)

والبدرُ مُنْتَقِبٌ بغَيْمٍ أبيضٍ هو فيه بينَ تخفُّرٍ وتبرُّجِ
كتنفُّسِ الحسناءِ في المرآةِ قد نظرتْ محاسِنَها ولم تتزوَّجِ

واخذه ابن برد الأندلسي* فقال من قطعة :(٢)

والبدرُ كالمرآةِ غيرِ صقيلةٍ(٣) عبثَ العَذارى فيهِ بالأَنفاسِ

وقال إبراهيم بن محمد المرادي القيرواني** يلغز فيه ويشبهه في حالات مختلفة

---

(١) اليتيمة ٢ : ١٩٠ ونثار الأزهار : ١١٣ـ١١٤، والرواية فيهما :
وتمايلُ الجوزاءِ يحكي في الدجى ميلانَ شاربِ قهوةٍ لم تُمزجِ
وتنقبتْ بخفيفِ غيمٍ أبيضٍ هي فيه بين تخفّرٍ وتبرّجِ
كتنفسِ الحسناءِ في المرآةِ إذ كَمُلتْ محاسنُها ولم تتزوجِ
(٢) الذخيرة ١ /٢: ٤٩ ونثار الأزهار : ٦٣ .
(٣) الذخيرة : غير صقلها .

---

* هو أبو حفص بن برد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر . قال فيه ابن بسام : "كان في وقته فلك البلاغة الدائر ومثلها السائر"، ومن مؤلفاته : "سر الأدب وسبك الذهب". (الذخيرة ١ / ٢: ٤٩).

** من شعراء الانموذج . قال فيه ابن رشيق : "شاعر معروف آخذ بأطراف العلوم وله من سرعة الحفظ ما ليس لأحد من أهل الوقت" . (المسالك ١١، الورقة : ٣٦٩).

ويمدح المعزّ بن باديس ملك القيروان[١]:

١٢ ب /دعْ ذا وقلْ للنّاسِ ما طـارقٌ يطرقُهم جهـلاً[٢] ولا يَتّقِـي

ليسعَ له روحٌ على أنـه يركبُ ظهرَ الفـرسِ[٣] الأبلقِ

شيخٌ رأى آدمَ في عصرِه وهو إلى الآن بخدٍّ نقِـي

هذا ويمشي الأرضَ في ليلةٍ أعْجِبْ به من مُوْثَقٍ مُطْلَقِ

وتارةً يوجدُ في مغـربٍ وتارةً يوجدُ في مشرقِ

وتارةً تبصرُهُ عائمـاً[٤] يسري بشاطِي البحرِ كالزّورقِ

وتارةً تلقاهُ في لُجّةٍ من فوقِهِ الماءُ ولم يَغْرَقِ

وتارةً تحسبُه وهو في سترتِهِ والبعضُ منه بقِي

ذبابةً من صارمٍ مرهفٍ بارزةً من جفنِهِ المُطبقِ

---

(١) مسالك الابصار ١١، الورقة : ٣٦٩ ونهاية الأرب ١: ٥٤.
(٢) المسالك والنهاية : جهرا .
(٣) المسالك والنهاية : الأدهم.
(٤) المسالك والنهاية : سابحا .

ذو زوجةٍ أضحى لـه حُسْنُها[1] يختطِفُ الأَبصارَ بالـرَّونَقِ

حتى إذا جامعها يـرتـدي بحلَّـةٍ كالـورقِ المُحْـتَرَقِ[2]

وهو على عادتِـهِ دائمـًا يجامِـعُ الأنـثى ولا يلتقـي[3]

ثم يجـوبُ القفرَ من أجلِهـا مشـتملاً في مُطْـرَفٍ أزرقِ

وجسـمُهُ من ذهـبٍ جامـدٍ وجلدُهُ صيـغَ من الـزئبـقِ

ثم يُـرى في حين إتمـامِـهِ مثـلَ مِجَـنِّ الحـربِ للمتقـي

وهـو إذا أبصرتَـهُ هكـذا أحسنُ[4] من صاحبـةِ القُـرْطَـقِ[5]

كأنّـه وجـهُ المعـزِّ الـذي تـاهَ به الغـربُ على المشرقِ

/وينسب الى ابن الرومي في مثلـه :[6] ١٣ أ

يا مَنْ كَفُرَّتِهِ الهلالُ أما تَـرى قمرَ السماءِ وقد بدا في المَشْرِقِ

---

(١) المسالك والنهاية : يدنو الى عرس له حسنها .
(٢) المسالك : ترتدى . . المسالك والنهاية : سوداء كالمحرق .
(٣) المسالك والنهاية : ولا يتّقي .
(٤) المسالك والنهاية : أملح .
(٥) القرطق : القباء .
(٦) نثار الأزهار : ٥٩ منسوبين للسّوسي .

كخَريدةٍ نظرتْ إلى إلْفٍ لها[١] فتنقَّبَتْ خَجَلا بِكُمٍّ أزرقِ

وقال الوأواء[٢]:

والبدرُ أوَّلَ ما بدا مُتَكَتِّمًا[٣] يُبدي الضِّياءَ لنا بِخَدٍّ مُسْفِرِ

فكأنَّما هو خوذَةٌ من فضّةٍ قد رُكِّبَتْ في هامةٍ من عَنْبَرِ

وقال الطغرائي مؤيد الدين في مقابلة النيّرين[٤]:

فكأنّما الشمسُ المنيرةُ إذ بدتْ والبدرُ يَجْنَحُ للمغيبِ ويَغْرُبُ[٥]

مُتحاربَانِ مِجَنُّ ذا قد صاغَهُ[٦] من فِضَّةٍ ولذا مِجَنُّ مُذْهَبُ[٧]

---

(١) نثار الازهار: كطريفة نظرت إلى عشاقها.
(٢) ديوان الوأواء: ١٠٨، واليتيمة ١: ٢٩٢، ونثار الأزهار: ٦٠.
(٣) الديوان واليتيمة: متلثما.
(٤) ديوان الطغرائي: ١١٩، ونثار الازهار: ١٠٣، ونهاية الارب ١: ٤٥.
(٥) الديوان: وحذاؤها في الأفق بدر يغرب، ونثار الأزهار والنهاية: والبدر يجنح للغروب وما غرب.
(٦) الديوان ونهاية الأرب: متحاربان لذا مجن صاغه.
(٧) نثار الازهار ونهاية الارب: من ذهب.

وقال ابن مكنسة الاسكندري*:

أما تَـرى البَـدْرَ وقـدْ شَـقَّ قَميصَ الغَسَقِ

كأنّـه وجـهُ السَّـماءِ في قنـاع أزرقِ

ومن قصيدة للشريف أبي الحسن علي بن إسماعيل الرّندي:(١)

ألـمَّ وفوقَ رأسِ اللّيلِ تـاجٌ مُكَلَّلَـةٌ جوانبُـهُ بـدُرِّ

وقد حَمَلـتْ به كـفُّ الثريا جَـنِيَّ الوردِ أبيضَ غبَّ قطرِ

كأن الزهرةَ الغرّاءَ فيـه وقـد طلعتْ يتيمةُ درِّ بحرِ

١٣ ب /وقد ولّى الظلامُ ببدرِ تـمٍّ كأسودَ حاملٍ مرآةَ تـبرِ

ويقرب من هذا قول سليمان بن محمد الطرابلسي** من قطعة:(٢)

ألويحُ لي من طـولِ ليـلٍ كدتُ أنفـدُ قبلَ يَنْفَـدْ

---

(١) مسالك الابصار ١١: الورقة ٣١٧.

(٢) في الأصل: سلمان، والتصحيح عن الخريدة.

---

* هو أبو طاهر اسماعيل بن محمد، من شعراء مصر المشهورين، وهو شاعر مكثر التصرف قليل التكلف، حاول الاتصال بالملك الأفضل فلم يوفق، توفي في حدود سنة ٥٠٠. (الخريدة (مصر) ٢: ٢٠٣ والفوات ١: ٣٦).

** سليمان بن محمد الطرابلسي (ولعلّ الصواب الطرابنشي نسبة الى طرابنش بصقلية). وقد انتقل سليمان هذا الى الأندلس واستوطنها ومدح ملوكها، ولعله هو الذي اشتهر باسم سليمان بن محمد المهري الصقلي. (الخريدة (المغرب) ١: ٩٤، وانظر جذوة المقتبس: ٢٠٦).

سامرتُ فيه كواكبًا كصابيح الرُّهبانِ رُكَّدْ
فكأنَّها درٌّ تناثَرَ فوقَ أرضٍ من زبرجدْ
والبدرُ في وسطِ السَّماءِ كدرهمٍ في كفِّ أسودْ

وقال ابن وكيع في الجوزاء وفيه:

وليلةٍ أحييتُها ما بينَ عُجْبٍ وَعَجَبْ
طار بنا في جُنْحِها جناحُ لَهْوٍ وطَرَبْ
والبدرُ قد أهدى لنا في ظلمةِ اللّيلِ شُهُبْ
وقد دَنَتْ جوزاؤُهُ إليه تسعى من كَثَبْ
كأنَّها روميَّةٌ في أُذنِها شَنْفُ ذَهَبْ

وقال ابن رشيق* فيه وفي الثريا:

يا ربَّ ليلٍ بتُّه مثلَ مبيتِ النَّابغَهْ

---

* هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني. كاتب وشاعر من أدباء القرن الخامس. له كتاب "العمدة" المشهور في النقد، وكتاب "الانموذج". توفي بمازر من صقلية سنة ٤٥٦. (ابن خلكان ١: ٣٦٦).

ولـمْ تُساوِرْنـي سـوى عَقْرَبِ صُدغٍ لادِغَـهْ

وقـدْ بـدا البَدْرُ المُنِـيـرُ والثريـا بازِغَـهْ

١٤ أ / كأنّـه تـرسُ لجـيـنٍ حـول درعٍ سـابغَـهْ

وقـال أيضـا من قطعـة[1] :

والثريـا قبالـةَ البدرِ تحكي باسطًا كفَّهُ ليـأخذَ[2] جامـا

وقال ابن بابك* في أرجـوزة[3] :

والبـدرُ كالمـرآةِ واللألاءِ[4] حلـيتُهـا كواكـبُ الجـوزاءِ

كأنّـه في كبـدِ السـمـاءِ حديقـةٌ فيها غديـرُ مـاءِ

---

(١) ديوان ابن رشيق: ١٧٠، ومعاهد التنصيص ١: ١٤٠.
(٢) الديوان: ليقبض.
(٣) نثار الأزهار: ٥٩ دون نسبة.
(٤) نثار الأزهار: والبدر في المرآة كاللألاء.

---

* هو عبد الصمد بن منصور بن الحسن بن بابك، وهو شاعر مكثر، اتصل بالصاحب بن عباد فأجزل الصاحب صلته. توفي في بغداد سنة ٤١٠. (اليتيمة ٣: ٣٧٧ وابن خلكان ٢: ٣٦٨).

وقال في المعنى من قصيدة :

والليلُ درعٌ قد تسـمَّرَ ظلُّهُ والنجمُ في لحظاتِهِ أعضاءُ

والبدرُ يضحكُ كالغديرِ تكشَّفتْ عن جانِبَيْهِ حديقةٌ خضـراءُ

ولأبي نصر سهل بن المرزبان* فيه وفي الثريا (١) :

كم ليلةٍ أحْيَيْتُها ومؤانسي طُرَفُ الحديثِ وطيبُ حَثِّ الأَكْؤُسِ

شَبَّهْتُ بدرَ سمائِها لمّا دنتْ منه الثريا في مـلاءةِ حِنْـدِسِ (٢)

ملكاً مهيباً قاعداً في روضِـهِ حيّاهُ بعضُ الزائريـنَ بنرجسِ

وقال أبو محمد عبد العزيز ابن الحاكم المعافرى الصقلي** (٣) :

وكـأنّ البـدرَ والمـريـخَ إذ وافى إليـهِ

---

(١) اليتيمة ٤: ٣٩٢، ونثار الازهار : ٦٠، ومعاهد التنصيص ١: ١٣٨.

(٢) اليتيمة والمعاهد : قميص سندسي . والحندس : الأسود الحالـك والليل شديد الظلمة .

(٣) الخريدة (المغرب) ١: ٨٢، وفي معاهد التنصيص ١: ١٣٧ منسوبين لأبي عتيق السفار .

* أصله من أصبهان ومنشؤه قاين واستوطن نيسابور . ألّف كتاب أخبار أبي الصناء ، وأخبار جحظة وأخبار ابن الرومي وغيرها . وكان قد وظف نساخا كثيرين بداره لنسخ الكتب . (اليتيمة ٤: ٣٩١) .

** في الأصل : عبد العزيز الحاكم المعافر والتصحيح عن الخريدة . وقد وصفه فيها بالبراعة في الصناعة والمهارة في العبارة . (الخريـدة (المغرب) ١: ٨١) .

ملـــكٌ تُوقَـــدُ ليـــلاً شـــمعةٌ بـــينَ يديـــهِ

وقال علي بن محمد بن حبيب التميمي، من قصيدة :

١٤ ب / ورأيتُ الشّعرى كجذوةِ نـــارٍ والثريـا كالجوشنِ المزرورِ

وترى أنجـمَ المجـرّةِ منهـــا في مسيلٍ كالجدولِ المطّرِدِ

وكأنّ النجـومَ زَهْـرُ ريـــاضٍ قد أحاطتْ من بدرِها بغديرِ

بمنـيرٍ قد اســتدارَ بهِ الـــتمُّ فأضحـى كجامـةِ البلّـورِ

وقال ابن المعتز[1] في تشبيهه عند انتصافه :

ما ذقتُ[2] طعمَ النومِ لو يَدري[3] كأنّ جَنْبَيَّ[4] على الجَمْـــرِ[5]

في قمرٍ مُسْتَرَقٍ[6] نِصفُـــــهُ كأنّهُ مِجْرَفَـةُ العِطْـــرِ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٤: ٩١، وتشبيهات ابن ابي عون: ١٢، وديوان المعاني ١: ٣٤٢، ونثار الأزهار: ٥٧.
(٢) ديوان المعاني: النوى.
(٣) الديوان وابن ابي عون وديوان المعاني ونثار الأزهار: تدري.
(٤) تشبيهات ابن ابي عون ونثار الأزهار: أحشائي.
(٥) ابن ابي عون وديوان المعاني ونثار الأزهار: جمر.
(٦) ابن ابي عون: من ... مستبرق، ديوان المعاني: مشرق.

الفصل الرابـــع :

ومما يتعلق بوصف القمر وصف ضوئه على الماء :

ومن أحسن ما قيل فيه قول القاضي التنوخي :[1]

لم أنسَ دجلةَ[2] والدُّجى مُتَصَوِّبٌ[3] والبدرُ في أُفُقِ السَّماءِ مُغَـرِّبُ

فكأنها فيـــهِ رداءٌ[4] أزرقٌ وكأنه فيها طـــرازٌ مُـذْهَـبُ

وقال المملوك من قطعة يظن أنه زاد فيها على هذا المعنى[5] :

والليلُ فَـرْعٌ بالكواكبِ شـائبٌ فيه مجرَّتُـهُ كمثـلِ المفـــرقِ

١٥ أ / ولربّمـا يأتـي الهلالُ ببحـرِهِ متصيِّدًا حوتَ النّجومِ بـزورقِ

حتّى إذا هبَّتْ على الماءِ الصَّبا وأَلاحَ نـورُ تمـامِهِ بالمشـرقِ

أبدى لنا علمًا بهيجًا مذهبًا قد لاحَ في تجعيدِ كُـمٍّ أزرقِ

وحكى برادة مسجدٍ قد قامَ صـانِعُهـا[6] يؤلِّفُ بينها بالـزِّئبـــقِ

---

(١) اليتيمة ١ : ١٠٩ ، واليتيمة ٢ : ٣٤٠ ، وديوان المعاني ١ : ٣٤١ .
(٢) اليتيمة ١ : ١٠٩ : أحسن بدجلة .
(٣) ديوان المعاني : والهوى متضرم .
(٤) اليتيمة ١ و ٢ : بساط .
(٥) الفوات ٢ : ١١١ ـ ١١٢ .
(٦) الفوات : صانعها .

وهذا معنى غريب لا يظن المملوك انه سبق إليه .

ومن أحسن ذلك أيضا قول ابن التمّار الواسطي *(١) :

قُمْ فانتَصِفْ من صروفِ الدَّهرِ والنُّوَبِ ... واجمعْ بكأسِكَ شملَ اللّهوِ والطَّرَبِ

أما ترى الليلَ قد ولّتْ عساكِرُهُ ... مهزومةً وجيوشُ الصّبحِ في الطَّلَبِ

والبدرُ في الأُفقِ(٢) الغربيِّ تحسبُهُ ... قد مَدَّ جسرًا على الشَّطَّيْنِ من ذَهَبِ

وقد قال المملوك في قطعة زاد فيها على هذا المعنى من قبل الصنعة وهي :

بشاطئِ نهرٍ كالسَّماءِ نجومُهُ ... الحَصى فوقَهُ مثلَ الهلالِ سَمَاري(٣)

ولمّا أتانا عسكرُ اللّيلِ راكبًا ... على الشُّهبِ في نقعِ الدّياجرِ سارِي

١٥ ب / ألاحَ عليهِ البدرُ في الغربِ نورَهُ ... فسارتْ خفايا فوقَهُ ودَراري

كأنّ جيوشَ اللّيلِ حاوَلْنَ قطعَهُ ... فمَدَّ عليهِ البدرُ جِسْرَ نُضارِ

---

(١) اليتيمة ٢: ٣٧١ .
(٢) اليتيمة : الجانب .
(٣) السميرية : ضرب من السفن .

---

* شاعر عراقي، كان يقول الشعر تطربا لا تكسبا . وشعره يتغنى بأكثره . (اليتيمة ٢: ٣٧١) .

ومن أطرف ذلك قول منصور بن كيغلغ *(١):

قامَ الغُلامُ يُديرُها في كفِّهِ ... فحسبتُ بدرَ التَّمِّ يلثمُ(٢) كوكبَا

والبدرُ يَجنحُ للأفولِ(٣) كأنه ... قد سَلَّ فوقَ الماءِ سيفًا مُذْهَبَا

ومثله في الحسن قول ابن وكيع:

قُمْ يا غلامُ أَدِرْ عليَّ بِسُحْرَةٍ ... كأسًا كطعمِ العيشِ بل هي أطيبُ

لا سيما والنيلُ يلمعُ فوقَه ... بدرٌ لوقت مغيبه مُتَصَوِّبُ

وكأنّ صفحَ الماءِ دَرْجٌ أبيضٌ ... فيهِ لضوءِ البدرِ سَطْرٌ مُذْهَبُ

ويلحقه في الجودة قول الأمير تميم(٤):

يا ربَّ ليلٍ بتُّهُ ناعمًا ... بينَ رُبى المُختارِ والجِسْرِ(٥)

---

(١) اليتيمة ١: ١٠٨.
(٢) اليتيمة: يحمل.
(٣) للغروب.
(٤) ديوان الأمير تميم: ٢١٥.
(٥) الديوان: فالجسر.

---

* من شعراء اليتيمة. (اليتيمة ١: ١٠٨).

أخرجُ فيهِ لِصَبًّا مِن صَبَا ... وأَستَحِثُّ الخمرَ بالخمرِ

والبدرُ قد شدَّ[1] على نيلِهِ ... مِنْطَقَةً من خالصِ التِّبرِ

وقال كشاجم*[2]:

١٦ أ / ما زِلْتُ أُسْقَاهَا عَلَى ... وَجْهِ غزالٍ مُونِقِ

مُخَتَّمٍ بخاتمٍ ... بمثلِهِ مُنْطَبِقِ[3]

والبدرُ فوقَ دجلةٍ ... والصُّبحُ لمّا يُشرقِ

كَحُلَّةٍ[4] من ذهبٍ ... فوقَ رداءٍ[5] أزرقِ

---

(١) الديوان : مدّ .

(٢) ديوان كشاجم، الورقة : ٨٠، واليتيمة ١: ١٠٩ .

(٣) ورد هذا البيت في الديوان واليتيمة على هذه الصورة :

بقمر منتقب ... بخاتم منتطق

(٤) الديوان: مكحلة . اليتيمة : كحلية .

(٥) الديوان : بساط .

---

* هو ابو الفتح وابو الحسين محمود بن الحسين (وقيل : بن محمد بن الحسين) الرملي . اديب وشاعر مبرز في العلوم . كان من شعراء ابي الهيجاء ابن حمدان والد سيف الدولة، وخدم سيف الدولة فيما بعد . له من المؤلفات "ادب النديم"، و"المصائد والمطارد" . وكتاب رسائله (الفهرست ١٣٩، وشذرات الذهب ٣: ٣٧) .

وقال علي بن محمد التميمي من قصيدة :

وتَعالُ مُطَّرَدَ الحبابِ بمَـوْرِهِ في حيثُ ما اُستقبلتَ معدنَ زئبقِ

يختالُ مَرُّ الماءِ من لألائِـهِ في مثلِ منطقةِ اللجينِ المُحرقِ

ومن أخرى لـه :

وكأن السحابَ تذرو على الأ رضِ إذا قابلَتْـهُ مِسْكًا فَتيقَـا

تتلقى أضواءَهُ حُبُـكُ المـاءِ كما لاعبَ الحبابُ الغريقَـا

كلَّما ارتجَّتِ الرِّياحُ عليـهِ خلتَ منهُ بالماءِ قلبًا خفوقَـا

وقال السّلامي* من قصيدة :(١)

على نهرٍ سَلْ في دُجى اللَّيلِ منْ رأى كَواكِبَه زُهرًا تأمَّلَ أم زَهَـرَا

إذا طلعتْ فيه النجومُ فما تَرى به العينُ إلا الثَّلجَ مُستودَعًا جَمْرَا

/تَرَى قد أعادَ اللّيلُ مِسْكًا ثَراهُ(٢) وماءٌ أعادَ البدرُ فضتَهُ تِبْرَا ١٦ ب

---

(١) اليتيمة ٢: ٤٢٠.
(٢) اليتيمة : عبيره .

---

* هو أبو الحسن محمد بن عبدالله السلامي ، بغدادى المولد مخزومي النسب . اتصل بالصاحب بن عباد وعضد الدولة بن بويه ونال حظوتهما . توفي سنة ٣٩٣ . (اليتيمة ٢: ٣٩٦ وابن خلكان ٤: ٣٥) .

وأنشدني القاضي النّفيس عبد الغني بن القطرسي* الكاتب لنفسه وأجاد فيه:

يا حبَّذا النِّيلُ وحسنُ موجِهِ المُطَّرِدِ
والبدرُ يحكي فوقَهُ من أفقِهِ على نَدِ (١)
كجوشنٍ من فضّةٍ عليهِ ترسُ عسجدِ

وقال المملوك بديها على شاطئ النيل:

جلستُ بشاطِي النِّيلِ ليلاً وقد بدا بهِ ضوءُ بدرِ التَّمِّ والماءُ مهتَدي
فخِلْنا له من مائِهِ سيفُ فضةٍ موشّىً من البدرِ المنيرِ بعسجَدِ

وقال أيضا:

تأمَّلْ مياهَ الخليجِ الذي أتى لكَ من أمرِهِ بالعَجَبْ
وقد درَّجَتْهُ الصَّبا سُحْرَةً وقابلَهُ البَدْرُ لمّا غَرَبْ

---

(١) الند: التل المرتفع.

---

* هو القاضي النفيس أحمد بن عبد الغني بن أحمد القطرسي، فقيه مالكي المذهب، كانت له يد في علوم الأوائل والأدب. توفي سنة ٦٠٣ بمدينة قوص وقد ناهز سبعين سنة. (ابن خلكان ١: ١٤٨).

حَكَى زَرَدًا صِيغَ من فضـــةٍ وقد مَوَّهُوا بعضَهُ بالذَّهَبْ

ولابن رشيق من قصيدة :

١٧ أ / وجرى شعاعُ البدرِ فيه فأنثنى كاللازوردِ المُذْهَبِ الأَثْنَاءِ

الفصل الخامس:

ومما يتعلق بذكر تشبيه ضوء البدر على الماء ذكر التشبيه المستحسن في ضوء الشمس والسرج . ومن أحسن ما قيل في تشبيه ضوء الشمس على الماء قول ابن المعتز ووصف إبلا :

وتبدّى لهنّ بالنّجَفِ المُقْـ ـفِرِ ماءٌ صافي الجَمامِ عَرِيُّ
يتمشّى على حصى يسلبُ المـ ـماءَ قذاهُ فمتنُهُ نَخْلِيُّ
وإذا قابلَتْهُ ذرّةُ شمسٍ خلتَهُ كُسِّرَتْ عليهِ الحُلِيُّ

وقال ابن قلاقس من قطعة :(١)

ولِلنِّيلِ تحتَ ثيابِ الأصيـ ـلِ لُجَينٌ توشّحَ بالعسجَدِ
فأشبهَ إذ (٢) دَرَّجَتْهُ الصَّبا بُرادةَ تبرٍ على مبرَدِ

وقال مؤيد الدين الطغرائي في تشبيه الشمس قابلت غديرا :(٣)

حولَ غديرٍ ماؤهُ دارِعٌ (٤) والأرضُ من رِقّتِهِ حاسِرَهْ

---

(١) ديوان ابن قلاقس: ٣٥ .
(٢) الديوان : بحاكي إذا . .
(٣) ديوان الطغرائي: ١٢١، والنهاية ١: ٢٨٥ .
(٤) الماء الدارع: الذي أكل ما حوله من المرعى .

قد رُكِّبَ الخضراءُ فيهِ، فمِنْ حصبائِهِ أنجمُها[1] الزّاهِرَهْ[2]

١٧ ب / والشمسُ إذ حاذَتْهُ وقتَ الضُّحى[3] حسناءُ في مرآتِهِ ناظِرَهْ

وهذا من قول ابن المعتز يصف غديرا[4]:

ما إنْ يزالُ عليهِ ظبيٌ كارِعٌ كتطلُّعِ الحسناءِ في المرآةِ

وقال ابن وكيع[5]:

غديرٌ تُدرِّجُ أمواجَهُ[6] هبوبُ الرِّياحِ ومَرُّ الصَّبا

إذا الشمسُ من فوقِهِ أشرقَتْ تَوَهَّمْتَهُ زَرَدًا[7] مُذْهَبا

وقال السلامي من قطعة[8]:

ونهرٍ تمرحُ الأمواجُ فيهِ مِراحَ الخَيلِ في رَهَجِ الغُبارِ

---

(١) الديوان: أنجمه.
(٢) تقدم هذا البيت في نهاية الأرب بيت يوضح معناه ويفسر متعلقاته، وهو:
والشّهبُ إن حاذتْهُ جُنحَ الدّجى تسبحُ في لجّتِهِ الزّاخِرَهْ
(٣) الديوان والنهاية: رأد.
(٤) ديوان ابن المعتز ٣: ٢٥، وأوراق الصولي: ١٨١، ونهاية الأرب ١: ٢٨٣.
(٥) ديوان ابن وكيع: ٣٩.
(٦) الديوان: يجعد أمواهه.
(٧) الديوان: جوشنا.
(٨) اليتيمة ٢: ٤٠٩.

إذا اصْفَرَّتْ عليه[1] الشّمسُ خِلْنا نسيرَ الماءِ يُمزجُ بالعُقارِ

كأنّ الماءَ أرضٌ من لجينٍ مُغَشّاةٌ صفائحَ من نضارِ

وقال أيضا من قصيدة[2] :

ولَمْ نَرَ بحرًا جرى بالعقارِ ولا ذهبًا صيغَ منه جَمَلْ

إلى أن جرتْ دِجْلةٌ بالشعاعِ[3] وطنّبَ بالنّوْرِ أعلى القُلَلْ[4]

وكنّا نرى الموجَ من فضةٍ فذَهّبهُ النّورُ لمّا اشتعَلْ

وقال البحتري في بركة الجعفري[5] :

إذا عَلَتْها الصّبا أبدتْ لها حِكَمًا مثلَ الجواشنِ مصقولٌ[6] حواشيها

١٨ أ /إذا النجومُ تراءتْ في جوانبِها ليلاً حسبتَ سماءً رُكّبَتْ فيها

---

(١) اليتيمة : علينا .

(٢) اليتيمة ٢ : ٤١٩ .

(٣) اليتيمة : في الشعاع .

(٤) القلل : أعلى كل شيء .

(٥) ديوان البحتري ١ : ٨٣، وتشبيهات ابن أبي عون : ٥٥، ونهاية الأرب ١ : ٢٨٦ .

(٦) الديوان وابن أبي عون والنهاية : مصقولاً .

وقد أخذ هذا الصنوبري* فقال:(١)

ولمّا تعالى البدرُ واشتدَّ ضوؤُه ... بدجلةَ في تشرينَ بالطُّولِ والعَرْضِ

وقد قابلَ الماءُ المفضضُ نورَهُ ... وبعضُ نجومِ اللّيلِ يطفو سَنا بعضِ

توهَّمَ ذو العينِ البصيرةِ أنه ... يرى باطنَ الأفلاكِ في ظاهرِ الأرضِ(٢)

ولأبي الحسن الصقلي** في تشبيه ضوء السراج على الماء وأحسن:(٣)

شَرِبْنا مع غروبِ الشّمسِ شمسًا ... مُشَعْشَعَةً إلى وقتِ الطُّلوعِ

وضوءُ السّرجِ(٤) فوقَ النيلِ(٥) بادٍ ... كأطرافِ الأَسِنَّةِ في المُدَرَّعِ

---

(١) زهر الآداب: ١٨٩، ونهاية الأرب ١: ٢٨٢، ورفع الحجب ١: ١٣٥.
(٢) النهاية: ظاهر ... في باطن ...
(٣) الخريدة (المغرب) ١: ٦.
(٤) الخريدة: الشمس.
(٥) في الأصل: الليل.

---

* هو أبو بكر أحمد بن محمد الضبي الصنوبري، من مواليد أنطاكية ومن شعراء حلب زمن الحمدانيين حتى بعيد تولي سيف الدولة. أكثر شعره المعروف في وصف الطبيعة، وله ديوان كبير لا يزال مخطوطا. توفي سنة ٣٣٤. (الفوات ١: ١١١، والوافي ٧ الورقة: ١٨١، والنجوم الزاهرة ٣: ٢٩٠).

** هو علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الصقلي الأنصاري، شاعر من معاصري أمية بن أبي الصّلت. (الخريدة (المغرب) ١: ٥).

وذكر أبو الصّلت أمية* في يوم المهرجان إلى الأفضل[١]:

أَبْدَعْتَ للنّاسِ منظرًا حسنًا ... لا زلتَ تُحيي السّرورَ والطَّرَبا

أَلَّفْتَ[٢] بينَ الضّدينِ مُقْتَدِرا ... فمنْ رأى الماءَ خالَطَ اللَّهَبا

كأنما الماءُ[٣] والشّموعُ بِهِ ... أُفْقُ سماءٍ تألَّقَتْ شُهُبا

١٨ ب / قد كان من[٤] فضةٍ فصيّرَهُ ... توقُّدُ النّارِ فوقَهُ ذَهَبا

وأنشدني الفقيه همام بن راجي الله** لنفسه:

رأيتُ الماءَ قابلَهُ سراجٌ ... ولاحَ الضوءُ من فوقِ الحبابِ

---

(١) الخريدة (المغرب) ١: ٥٠
(٢) الخريدة: جمعت.
(٣) الخريدة: النيل.
(٤) الخريدة: في.

---

* هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي: كاتب وشاعر أندلسي. كان قدوة في علوم الأوائل، وخاصة في المنطق منها. رحل الى المشرق، واستقر بالاسكندرية مدة. ألف "الرسالة المصرية" وله ديوان شعر. توفي بعد سنة ٥٢٢. (الخريدة (المغرب) ١: ١٨٩).

** هو همام بن راجي الله بن سرايا بن ناصر بن داوود، جلال الدين، أبو الغنائم، فقيه شافعي مصري. له مصنفات في المذهب والأصول. توفي سنة ٦٣٠. (طبقات الشافعية ٥: ١٦٤).

فقلتُ لصاحبي لمّا اجتمعنا أهذي البرقُ من خَلَلِ السَّحابِ

وهذا مأخوذ من قول غلام البكري الأندلسي*:

أعجبْ بمنظرِ ليلةٍ ليلاءِ يُحيي بها اللّذاتِ فوق الماءِ

في زورقٍ يزهى بغرّةِ أغيدٍ يختالُ مثلَ البانةِ الغنّاءِ

قَرَنَتْ يداهُ الشّمعتينِ بوجهِهِ كالبدرِ بينَ النّسرِ والجوزاءِ

وألْتَاحَ تحتَ الماءِ ضوءٌ منهما كالبرقِ يَخْفِقُ في غَمامِ سماءِ

وأخذه غلام البكرى من قول إبراهيم بن غانم القيروانـي** في البحر:

يأتيكَ من كَدَرِ الزّواخِرِ مَتْنُهُ بِمُمَسَّكٍ من مائِهِ ومُصَنْدَلِ

---

* هو أبو الحسن حكم بن محمد غلام البكرى، وهو أحد شعراء الدولة العبادية وعاش فأدرك زمن المرابطين. (القلائد: ٢٩٠ والمغرب ١: ٣٤٨ وبغية الملتمس: ٢٦٥).

** قال فيه ابن رشيق: "كان كتابيّ الشعر رشيق المعاني وجيزها منفردا بعلم المساحات والأشكال ملغزا في التشبيهات" (المسالك ١١، الورقة: ٣٣٨).

وكأنَّ ضوءَ البدرِ في تمويجِـــهِ برقٌ تموَّجَ في سحابٍ مُقْبِـلِ

وقال المملوك من مزدوجة :

والشَّمسُ قد مالتْ لنحوِ المغربِ فموَّهـتْ لُجينَـهُ بالـذَّهـبِ

وَفَتَحتْ في ساعةِ الأَصيـــلِ وَرْدَتَهـا في خـدِّهِ الأَسـيلِ

كأنَّما النُّورُ وقد ريـحَ الصَّبَـا يَنْشُرُ فوقَ الماءِ درعًا مُذْهَبَـا

١١أ / الفصل السادس :

فيما قيل في تشبيه الثريا .

أحسن ما قيل فيها قول الحاتمي *(١) :

وليلٍ أقمنا فيهِ نُعْمِلُ كأسَنَا إلى أن بدا للصّبحِ في الجوِّ عسكرُ
ونجمُ الثريا في السَّماءِ كأنَّهُ على حلّةٍ زرقاءَ جيبٌ مُدَنَّرُ

وقال ابن حمديس (٢) :

وليلٍ رَسَبْنا في عُبابِ ظلامِهِ إلى أن طَفَا للصّبحِ في أفقِهِ نَجْمُ
كأنّ الثريا فيه سبعُ جواهرٍ يُفَصِّلُها (٣) جِزْعٌ (٤) به فُصِّلَ النَّظْمُ
وتَحسبُها في جَحفلِ الليلِ (٥) سِرْبَةً عمائِمُهُمْ بيضٌ وخيلُهُمُ دُهْمُ

---

(١) معاهد التنصيص ١ : ١٤٠ ، وحلبة الكميت : ٣٠٧ .
(٢) ديوان ابن حمديس : ٤٠٦ .
(٣) الديوان : فواصلها .
(٤) الجزع : ضرب من الخرز .
(٥) الديوان : من عسكر الشهب .

---

* أبو علي الحاتمي شاعر كاتب جمع بين بلاغتي النظم والنثر (اليتيمة ٣ : ١٠٨) .

كأنّ السُّها مُضْنًى أتَوْهُ[١] بنَعْشِهِ ذَووهُ[٢] فظَنّوا أنّ ميتَتَهُ[٣] حَتْمُ

وأجمع ما قيل في تشبيهها قول السلامي[٤]:

١٩ ب / والثريا كرايةٍ أو لِجامٍ[٥] أو بَنانٍ أو طائرٍ أو وِشاحْ

ويقرب منه قول الصنوبري وقيل إنها لابن المعتز ذكره الصّولي[٦]:

قُمْ فاسقِني والظَّلامُ مُنْهَزِمُ والصُّبحُ بادٍ كأنّه عَلَمُ

والطَّيرُ قد أطربَتْ وأعربتِ اللَّحانَ طُرًّا لكنَّها عَجَمُ

ومَيَّلَتْ رأسَها الثريا بأُسرا رٍ إلى الغربِ وهيَ تَحْتَشِمُ

في الشَّرقِ كأسٌ وفي مغاربِها قرطٌ وفي أوسطِ السَّما قَدَمُ

---

(١) الديوان : أتاه .
(٢) الديوان : بنوه .
(٣) الديوان : موتته .
(٤) اليتيمة ٢: ٤١٤، ونهاية الأرب ١: ٦٨ .
(٥) اليتيمة : كجام .
(٦) لم ترد في أوراق الصولي . وردت في معاهد التنصيص ١: ١٣٩ منسوبة للصنوبري، وفي نثار الأزهار: ٤٧ منسوبة لابن المعتز، وفي ديوان المعاني ١: ٣٣٥ ورد البيت الأخير في الهامش منسوبا للصنوبري .

وأخذ أبو علي بن رشيق بعض هذا المعنى فقال:

وليلٍ بعيدِ الجانبَيْنِ سَهِرْتُهُ ... مع النّجمِ حتى مُقْلَتي ليس تُطبقُ

وقد جنحتْ فيه الثريا كأنها ... على عاتقِ الجوزاءِ قِرطٌ معلّقُ

وقال السري الموصلي:(١)

كأن الثريا راحةٌ تَشْبُرُ الدّجى ... لتعلَمَ طال الليلُ لي أم تَعرَّضا

٢٠ أ / فأَعْجِبُ بليلٍ(٢) بين شرقٍ ومغربٍ ... يُقاسُ بشبرٍ كيف يُرجى له انقِضَا

وأخذه أبو الوليد بن زيدون* ونقص منه فقال:(٣)

زارني بعد هجعةٍ والثريا ... راحةٌ تَقْدُرُ الظَّلامَ بشبرِ

وقال ابن وكيع:

ومشمولةٍ من بناتِ الكرومِ ... تُميتُ الهمومَ وتُحيي الجَذَلْ

---

(١) نهاية الأرب ١: ١٣٦، وفي معاهد التنصيص ١: ١٤١ وحلبة الكميت: ٣٠٦ دون نسبة.
(٢) نهاية الارب ومعاهد التنصيص: عجبت لليل.
(٣) ديوان ابن زيدون: ٢٣١.

---

* هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي القرشي. وزير وكاتب وشاعر أندلسي مشهور من شعراء عصر الطوائف بالأندلس. خدم في دولة بني جهور بقرطبة ثم انتقل الى بني عباد وظل هناك حتى مقتله سنة ٤٨٤. وله ديوان شعر مطبوع. (القلائد: ٧٠، والذخيرة ١/ ١: ٢٨٩ والمغرب ١: ٦٣).

تناولَها وشـــبابُ الظـــلامِ قد شـابَ من فجرِهِ واكتهلْ

وقد شاكلتْ في أديمِ السـماءِ نجومُ الثريـا لِلَحظِ المُقَـلْ

دنانيرَ أعطَتْكَهـا راحـةٌ سوادُ الخِضابِ بها قد نَصَلْ(١)

وقال عبد الوهاب الأزدي القيروانيّ* المنعوت بالمثقال(٢) فيها وفي المريـخ والمشتري(٣):

كأنها راحـةٌ أشـارتْ لأخذِ تفـاحـةٍ وكـاسِ

وقال ابن رشيق فيها وفي المريخ والمشتري(٤):

رأيتُ بهرامَ والـزريـا والمشتري في العيانِ كرّهْ(٥)

كراحـةٍ خُيِّرَتْ فحـارتْ مـا بينَ ياقوتـةٍ ودُرّهْ

---

(١) نصلت اللحية نصولا: خرجت من الخضاب.
(٢) في الأصل: المنعوت بالمثقيل، والتصحيح عن الفوات ومعاهد التنصيص.
(٣) الفوات ٢: ٥١، ومعاهد التنصيص ١: ١٣٩.
(٤) ديوان ابن رشيق: ٧٧، والفوات ٢: ٥١ والنتف: ٣٣. وقد نسب البيتان خطأ في معاهد التنصيص ١: ١٣٩ لعبد الوهاب الأزدي المشهور بالمثقال وفي نثار الأزهار: ١١٣ لعبد الوهاب أحد شعراء افريقية.
(٥) الفوات والديوان والنتف: في القران.

---

* هو عبد الوهاب بن محمد الأزدي، من شعراء الأنموذج، قال فيه ابن رشيق: "شاعر مطبوع قليل التكلف سهل اللقاء خبيث اللسان ماجن لا يمدح أحداً". (الفوات ٢: ٥٠).

وقال ابن الرومي:(١)

٢٠ ب / والثريا كأنّها في بروجِ المطالعِ

كفُّ خودٍ تختمتْ في رؤوسِ الأصابعِ

وأخذه الوأواء فقال:(٢)

كأنما(٣) الفرقدانِ فيهِ على الثريا مراقبَيْنِ

كأنها كفُّ لازوردٍ فيه(٤) تطاريفُ من لجينِ

وأخذه ابن هانئ الأندلسي* وزاد عليه فقال:(٥)

وولّتْ نجومٌ للثريا كأنها خواتمُ(٦) تبدو في بَنانِ يدٍ تَخْفَى

---

(١) نثار الأزهار: ١١٢ دون نسبة.
(٢) ديوان الوأواء: ٢٣١.
(٣) الديوان: كأن.
(٤) الديوان: بها.
(٥) ديوان ابن هانئ: ٢٣٩ ومعاهد التنصيص ١: ١٣٩.
(٦) الديوان: خواتيم.

---

* هو أبو القاسم وأبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي. شاعر مشهور من شعراء الاندلس. ولد بالمهدية وانتقل الى الاندلس ثم فارقها الى افريقية حيث اتصل بأبي تميم معز بن المنصور العبيدي. له ديوان شعر مطبوع. قتل مخنوقا سنة ٣٦٢ (مطمح الأنفس: ٧٤، وابن خلكان ٤: ٤٩ وشذرات الذهب ٣: ٤١).

وقال ابن خفاجة *(١) :

وكأنّما نجمُ الثريّا سُحْرَةً ... كفٌّ تُمَسِّحُ عن معاطفِ أشهبِ

ولمنصور بن كيغلغ :

ربَّ ليلٍ سهرتُ حتى تجلّى ... مغرمًا في ظلامهِ أتقلّى

والثريا كأنها رأسُ طِرْفٍ ... أدهمٍ زِينَ باللّجامِ المُحَلّى (٢)

وقال تميم بن المعز (٣) :

ألا سَقّياني دُرّةً (٤) ذهبيةً ... فقد ألبسَ الآفاقَ جنحُ الدجى نَعَجْ (٥)

كأن الثريا والظلامُ يَحُفّها (٦) ... فصوصُ لجينٍ قد أحاطَ بها سَبَجْ (٧)

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ٧٤ وحلبة الكميت: ٣٠٦، وفي معاهد التنصيص ١: ١٤٠ دون نسبة .
(٢) ورد هذا البيت في معاهد التنصيص ١: ١٤١ دون نسبة .
(٣) ديوان تميم : ٨٦ ، وحلبة الكميت : ٣٠٦ .
(٤) الديوان وحلبة الكميت : قهوة .
(٥) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها .
(٦) الديوان: يحفها .
(٧) السبج : خرز أسود .

---

* هو أبو اسحاق ابراهيم بن الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري، من اهل جزيرة شقر ، كاتب وشاعر مبرز من شعراء عصر الطوائف والمرابطين بالاندلس ، وقد عرف خاصة بشعره في الطبيعة . له ديوان شعر مطبوع ، توفي سنة ٥٣٣ . (بغية الملتمس : ٢٠٢ والتكملة ١: ١٤٣).

٢١ أ / ومما ينسب الى ابن المعتز هذان البيتان :(١)

ألا سَقْنيها والظلامُ مُقَوَّضٌ وطرفُ الدّجى نحوَ المغاربِ يركضُ

كأن الثريا في أواخرِ ليلِها تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مفضَّضُ

ولأبي العباس الضبّي *(٢) :

خلتُ الثريا إذ بدتْ طالعةً في الحِندسِ

مُرْسَلةً(٣) من لؤلؤٍ أو باقةً من نرجسِ

وقال حسين بن المهذّب :

كأنما الليلُ والثريا تسبحُ في جوّهِ وتجري

زنجيةٌ جُرِّدَتْ فأبدتْ في صفحةِ الكفِّ عقدَ درِّ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٣: ٧٨، وأوراق الصولي : ١٩٥، وديوان المعاني ١: ٣٣٦، وأسرار البلاغة : ١٥٠، ١٩١، ونثار الأزهار : ١١٢ ، ومعاهد التنصيص ١: ١٤١، والبيت الثاني في تشبيهات ابن أبي عون : ٥ ونهاية الأرب ١: ٦٧ .

(٢) اليتيمة ٣: ٢١٦ ومعاهد التنصيص ١: ١٣٨ ونهاية الأرب ١: ٦٩ .

(٣) اليتيمة : سنبلة . والمرسلة : القلادة .

---

* هو أحمد بن ابراهيم الضبي . استصحبه الصاحب بن عباد وفضّله على سائر ندمائه فكان خليفته النائب منابه في حياته والقائم مقامه بعد وفاته . (اليتيمة ٣: ٢١١) .

وقال ولده أبو القاسم من قطعة :

وكأنّهـا لمّـا دَنَتْ لغروبهـا نارٌ تُصَوِّبُ هابِطًا من مَرْقَبِ

وقال ابن صرّبعر* من قصيدة فيها :(١)

وكأنهـا والشَّمـلُ يجمعُهـا(٢) رهطٌ قد اجتمعوا(٣) على سِرِّ

مثلَ العذارى من تَعفُّفِهـا تَستصْحِبُ الدَّبَرانَ كالخِـدْرِ(٤)

وقال ابن حمديس من قصيدة :(٥)

والثريـا رَجَحَ الجـوُّ بهـا كابنِ ماءٍ ضمَّ للجـوِّ(٦) جَنـاحْ

٢١ ب / وكأنَّ الشرقَ(٧) منهـا ناشِـقٌ باقةً من ياسـمينٍ أو أقـاحْ

---

(١) ديوان صردر : ١٧٨ .
(٢) الديوان : والشمس تجمعها .
(٣) الديوان : ازدحموا .
(٤) الديوان : كالحدر .
(٥) ديوان ابن حمديس : ٨٤ . ومعاهد التنصيص ١ : ١٣١ .
(٦) الديوان والمعاهد : للوكر .
(٧) الديوان والمعاهد : الغرب .

---

* هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي . كاتب وشاعر يعرف بصرّدرّ ابن صرّبعر . له ديوان شعر مطبوع ؛ وتوفي سنة ٤٦٥ . (المنتظم ٨ : ٢٨٠ ، وانظر مقدمة الديوان) .

وقال التّهـامي* (١) من قصيدة :

وللثريـا رُكـودٌ فوقَ أرحلِنـا ... كأنّها قطعةٌ من فـروةِ النّمرِ (٢)

ومن قطعة للوأواء (٣) :

فَتَحَيَّرْتُ لهـا التَّشـبيـهَ بالقـولِ المُصيبِ (٤)

وهي كأسٌ في شـروقٍ ... وهي قرطٌ في المغيبِ (٥)

وقال ابن وكيع فيها :

أقولُ لبـدري والخمارُ يكدُّني ... ولي طَرْفُ مجنونٍ وأطرافُ مُرْعَشِ

ألا سَقْنيها والثريـا كأنّمـا ... كواكبُها في جوِّها غصنُ مشمشِ

---

(١) ديوان التهامي : ٢٤ ونثار الأزهار : ١٢٨ .
(٢) الديوان ونثار الأزهار : جلدة .
(٣) ديوان الوأواء : ٤٢ ونهاية الأرب ١ : ٦٨ ، وفي ديوان المعاني ١ : ٣٣٥ منسوبة لأبي فضلة، والبيت الثاني في معاهد التنصيص ١ : ١٣٩ .
(٤) الديوان والنهاية : في المعنى . ديوان المعاني : بالمعنى .
(٥) الديوان وديوان المعاني والنهاية والمعاهد : غروب .

---

* هو أبو الحسن علي بن محمد التهامي، من الشعراء المجيدين ، قدم القاهرة مستخفيا يحمل كتبا كثيرة، ولكنه اعتقل وقتل سرا في سجنه سنة ٤١٦ . (النجوم الزاهرة ٤ : ٢٦٣ وتتمة اليتيمة ١ : ٣٧، وانظر مقدمة ديوانه) .

ولعبد المحسن الصوري* من قطعة[1] :

والثريا خفّاقةٌ بجناحِ[2] الغربِ تهوي كأنها رأسُ فهدِ

وللوأواء[3] :

وكأنّ الذّراعَ[4] تحتَ الثريّا رايةٌ رُكِّبَتْ بغيرِ سِنانِ

ولأبي الحسن البديهي**[5] :

ربَّ ليلٍ قطعتُهُ باجتماعٍ مع بيضٍ من الأَخِلاَّءِ غُرِّ

وكأنّ الكؤوسَ زُهْرُ نجومٍ والثريا كأنها عقدُ درِّ

---

(١) اليتيمة ١: ٣٢٥ ونثار الأزهار : ٥١.
(٢) في الأصل: لجناح والتصحيح عن اليتيمة.
(٣) ديوان الوأواء: ٢٤٣.
(٤) الذراع: نجم من نجوم الجوزاء على شكل الذراع.
(٥) اليتيمة ٣: ٣٤٤ ونثار الأزهار: ١١١.

---

* قال الثعالبي: "أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء، وهو من محاسن أهل الشام". (اليتيمة ١: ٣١٢ وانظر ابن خلكان ٢: ٣٩٧).

** هو أبو الحسن علي بن محمد البديهي. أصله من شهرزور وهو من الشعراء الطارئين على الصاحب بن عباد. (اليتيمة ٣: ٣٤٣).

وقال ظافر الحداد[1] :

٢٢ أ / كأنّ أنجمَها في اللّيلِ زاهرةً[2] دراهمٌ والثريا كفُّ مُنْتَقِدِ

وليوسف بن حَمَّوَيْه القزويني[3] :

زارني في الدُّجى فَنَمَّ عليهِ طيبُ أردانِهِ لدى الرُّقباءِ
والثريا كأنّها كفُّ خودٍ أُبْرِزَتْ من غلالةٍ زرقاءِ

وأخذه المملوك فقال من مزدوجة :

والنجمُ قد لاحَ لنا بالمشرقِ ككفِّ خودٍ في قميصٍ أزرقِ

وقال ظافر الحدّاد[4] :

كأنّ الثريا تَقْدُمُ الفجرَ والدُّجى يَضُمُّ حواشي سُجْفِهِ للمضاربِ
أخو سطوةٍ وافى وأوهى بكفِّهِ على حَنَقٍ منهُ لتهديدِ هاربِ[5]

---

(١) الخريدة (مصر) ٢: ٤٥، ونثار الأزهار: ١١٣، ومعاهد التنصيص ١: ١٣٩.
(٢) الخريدة: لائحة.
(٣) نثار الأزهار: ١١٢ دون نسبة.
(٤) معاهد التنصيص ١: ١٤١.
(٥) ورد البيت في معاهد التنصيص على هذا الشكل:
مُقدّمُ جيشِ الروم أوهى بكفِّهِ لتبديدِ جيشٍ من بني الزنجِ هاربِ

وقال المملوك من قطعة :

يا نَدِيمي بادِرْ لِشُرْبِ المُدامِ ... وأَعْصِ قولَ اللُّحاةِ واللُّوَّامِ

وأَنظُرِ الجوَّ كيف يضحكُ لمّا ... كسرَ النُّورُ عسكرَ الإظلامِ

وجيوشُ الصَّباحِ تتبعُ جيشَ اللَّيلِ لمَّا ... أَلَحَّ في الإنهزامِ

وكأنَّ السماءَ بَنْدٌ حريرٍ ... أسودٍ جاءَ مذهبَ الأعلامِ

والثريا كمثلِ قرطٍ تبدَّى ... في يدِ الفجرِ من بَنانِ الظَّلامِ

الفصل السابع:

٢٢ ب فيما قيل في سائر / النجوم من التشبيه ·

قال ظافر الحداد من قصيدة:(١)

كأن نجومَ الليلِ لمّا تبلّجَتْ ... تَوقّدُ جمرٍ في سوادِ(٢) رمادِ

حكى فوقَ مُمْتَدِّ المجرةِ شكلُها ... فواقعَ تطفو فوقَ لجّةِ وادِ

وقد سبحتْ فيه الثريا كأنّها ... بَنيقاتُ(٣) وشيٍ في قميصِ حِدادِ

ولاحتْ بنو نعشٍ كتنقيطِ كاتبٍ ... بيُسراهُ للتعليمِ أحرفَ(٤) صادِ

إلى أن بدا ضوءُ(٥) الصّباحِ كأنه ... رداءُ عروسٍ فيه صَبْغُ مِدادِ

وقال ابن شرف القيرواني* من قطعة:

تحتَ الظلامِ الذي مثلَ الظّليمِ جَنا ... والبدرُ بيضتُهُ والأُفْقُ أُدْحِيُّ

---

(١) معاهد التنصيص ١: ١٤١، والبيتان الأولان في نهاية الارب ١: ٣٣.
(٢) نهاية الأرب: خلال.
(٣) معاهد التنصيص: بقيّة. والبنيقات: المرى.
(٤) معاهد التنصيص: هيئة.
(٥) معاهد التنصيص: وجه.

---

* هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني. كاتب وشاعر مبرز. له كتاب "أبكار الأفكار" و "أعلام الكلام" وله رسائل كثيرة. توفي سنة ٤٦٠. (الذخيرة ١/ ٤: ١٣٣ والفوات ٢: ٤١٠ والوافي ٣: ٩٧).

حنى على واقعِ النّسرين ذروتَهُ ... كأنّه بيذَقٌ باثنين محميُّ

وقد تولّتْ بناتُ النعشِ هابطةً ... كأنما هي في بحرٍ سماريُّ

وقيصرُ الشرقِ قد أبدى طلائعَهُ ... فأنهدَّ بالمغربِ الجيشُ النجاشيُّ

وقال القاضي التنوخي(١):

كأنما المريخُ والمشتري ... قُدّامَهُ في شامخِ الرِّفْعَهْ

مُنصرِفٌ بالليلِ عن دعوةٍ ... قد أوقدوا قُدّامَهُ شَمْعَهْ

وقال ابن المعتز ووصف سحابة(٣):

٢٣ أ / كأنّ سماءَها(٤) لما تجلّتْ ... خلالَ نجومِها عندَ الصّباحِ

رياضٌ بنفسجٍ خَضِلٍ نَداهُ ... تَفَتّحُ فيهِ نُوّارُ الأقاحي(٥)

---

(١) اليتيمة ٢: ٣٣٨ ونثار الأزهار: ١٢١ ومعاهد التنصيص ١: ١٣٧.
(٢) اليتيمة: أسرجوا.
(٣) ديوان ابن المعتز ٤: ٧٠، ونهاية الأرب ١: ٣٣، وتشبيهات ابن ابي عون: ٧ وديوان المعاني ١: ٣٣٣ وحلبة الكميت: ٣٤٧.
(٤) ابن ابي عون والنهاية وديوان المعاني: سماءنا.
(٥) ابن ابي عون والنهاية وديوان المعاني: بينه نور.

وأخذ أبو بكر الخالدي هذا المعنى فقال وقصّر[١]:

أرعى النجومَ كأنّها[٢] في أفقِها ... زَهرُ الأقاحي في رياضٍ بنفسجِ

وقال الوأواء في المعنى[٣]:

رُبَّ نجومٍ في ظلامٍ أزرقِ[٤] ... راميتُها في مَغربٍ ومشرقِ

كأعينٍ[٥] من خجلٍ لم تُطرقِ ... أو نرجسٍ في روضةٍ مُفَرَّقِ

وأخذه العرقلة الدمشقي* فقال[٦]:

كأنَّ السَّماءَ وقد أشرقَتْ[٧] ... كواكبُها في دجى الحندسِ

رياضُ البنفسجِ مَحْمِيَّةٌ ... تَفَتَّحَ[٨] فيها جَنَى النّرجسِ

---

(١) اليتيمة ٢: ١٩٠.
(٢) اليتيمة: كأنما.
(٣) ديوان الوأواء: ١٦٣.
(٤) الديوان: في زمان أورق.
(٥) الديوان: كأنها.
(٦) الخريدة (الشام) ١: ٢٠٩.
(٧) الخريدة: أزهرت.
(٨) الخريدة: يفتّح.

---

* هو أبو النّدى حسّان بن نمير الكلبي الدمشقي. اختص بأمراء بني أيوب وخاصة صلاح الدين، وكان حلو المنادمة ظريفا مستطرف الهجاء. توفي سنة ٥٦٧ وقد قارب الثمانين سنة. (الخريدة (الشام) ١: ١٧٨، والوفيات ١: ٢٢٢).

وأخذه المملوك فقال :

والليلُ والأنجمُ فيهِ حكى ... بنفسجًا أزهرَ فيهِ الأقاحْ

وينسب الى ابن المعتز من قطعة :(١)

وتوقدُ المريخِ بين نجومِهِ ... (٢) كبهارةٍ في روضةٍ من نرجسِ

وقال هاشم بن إلياس المصري* من قطعة :

وكأنما المريخُ بينَ نجومِهِ ... ياقوتةٌ في جوهرٍ مُتبَدِّدِ

٢٣ ب / وقال ابن حمديس من قطعة :(٣)

فكأنما عقدُ الحنادسِ بُوكِرَتْ ... (٤) بيدٍ منَ الصُّبحِ المنيرِ فحُلَّتِ

وكأنَّ أنجمَها على أعجازِها ... درقٌ(٥) في أعجازِ دُهْمٍ(٦) وُلَّتِ

---

(١) ديوان ابن المعتز ٣: ٢٦٤ وأسرار البلاغة : ١٩١ ونثار الازهار: ١٢١.
(٢) نثار الأزهار : نجومها .
(٣) ديوان ابن حمديس : ٧٠ .
(٤) الديوان : وكأنما .
(٥) درق : تروس من جلود ليس فيها خشب .
(٦) الديوان : أكفال .

---

* لم أعثر له على ترجمة . وهناك إشارة في نهاية الأرب (١: ٦٦) إلى شاعر اسمه هشام بن إلياس المصري .

وقال ابن وكيع من قصيدة :

وللسَّماءِ وُشُحٌ مِنَ النجومِ وسُمْطْ
تحكي بساطاً أزرقاً فيهِ من التبرِ نُقَطْ

وقال في الجوزاء وأجاد :(١)

قُمْ فاسْقِني صافيةً تَهْتِكُ سِتْرَ(٢) الغَسَقِ
أما ترى الصبحَ بدا في ثوبِ ليلٍ خَلِقِ
أما ترى جوزاءَهُ كأنّها في الأُفُقِ
مِنْطَقَةٌ من ذهبٍ فوقَ قَباءٍ أزرقِ

وقال أيضا :

ما زلتُ أشرَبُها وأَسقي صاحبي والصبحُ في سربالِ تبرٍ مشرقِ
حتى بدتْ زُهْرُ النجومِ كأنّها دُرَرٌ نُثرنَ على بساطٍ أزرقِ

---

(١) ديوان ابن وكيع : ٨٣ ونهاية الأرب ١ : ٦٦ .
(٢) الديوان والنهاية : جنح .

وشاركه أبو عثمان الخالدي* فقال:(١)

وليلـــةٍ ليـلاءَ في اللَّـــونِ كَلَـــونِ المفـرقِ
كأنَّمـــا نجـومُهـــا في مغربٍ ومشـــرقِ
دراهـمٌ منثـــــورةٌ فـــوقَ رداءٍ أزرقِ(٢)

ولابن وكيع أيضا في المعنى:(٣)

٢٤ أ / أما ترى أنجـمَ الدّياجي تَزْهَرُ في جوِّها(٤) النقي
تحكي لنا لؤلـؤًا نثـيرًا على بساطٍ بنفسجي

ولابن مكنسة الاسكندري من قصيدة:

والزَّهرُ قد حفَّتْ بـــهِ مثلَ عيونِ الـرُّمُـقِ

---

(١) اليتيمة ٢: ٢٠٤.
(٢) اليتيمة: على بساط أزرق.
(٣) ديوان ابن وكيع: ١٠٠ وحلبة الكميت: ٣٠٦.
(٤) الديوان: جوفها.

---

* هو سعيد أو سعد بن هاشم بن وعلة بن عثمان الخالدي، أخو أبي بكر وقد اشترك واياه في كثير من الشعر. (الفوات ١: ٣٤٦ واليتيمة ٢: ١٨٣).

كأنّما أشكالُهـــا لامعةً في الأُفُـقِ

مداهنٌ من ذهـبٍ قد مُلِئَتْ بالزئبـقِ

وقال مؤيد الدين الطغرائي في أنجم الرّجم وان كانت القافية لينة :[1]

وليلٍ ترى الشهبَ منقضّةً بهِ نحو مُسْترقٍ سمعَهْ

تراها إذا انتثرتْ في السماءِ ولم تَخْلُ من ضوئِها بُقْعَهْ

مزاريقَ[2] تبرٍ ترامتْ بها بنو الحُبْسِ في حومَةِ الوقعَهْ

وقال ابن زيدون من قصيدة :[3]

والدجى من نجومِهِ في عقودٍ يتلألأنَ من سِماكٍ ونسرِ

تحسبُ الأفْقَ تحتَها[4] لازوردًا نُثِرَتْ فوقَهُ دنانيرُ تبرِ

---

(١) ورد البيتان الأولان في ديوان الطغرائي : ١١٩ .
(٢) المزراق: الرمح القصير .
(٣) ديوان ابن زيدون : ٢٣١ .
(٤) الديوان : بينها .

ومن جيد الشعر المجهول في تشبيه السماء والنجوم :

سبحانَ من رفعَ السماءَ بأمرهِ ... من غيرِ أعمدةٍ تكون عِمادَا

وكأنَّما هي خيمةٌ مضروبةٌ ... جعلَ الكواكبَ حولَها أوتادَا

٢٤ ب / وقال المملوك :(١)

وليلٍ زارني فيهِ حبيبٌ ... مَليحُ الشكلِ ساجي المُقْلَتَيْنِ

وقد بَدَتِ النجومُ على سماءٍ ... تكامَلَ صَوْغُها في كلِّ عَيْنِ

كسقفٍ أزرقٍ من لازَوَرْدٍ ... بدتْ فيه مَسامِرُ مِنْ لُجَيْنِ

---

(١) البيتان الأخيران في الفوات ٢: ١١١ .

الفصل الثامن :

ما قيل في تشبيه قوس قزح والثلج والبرق والغيم .

ومن أحسن ما قيل في قوس قزح قول سيف الدولة بن حمدان وينسب الى ابن الرومي وهو الصحيح (١) :

وساقٍ صبيحٍ للصّبوحِ دعوتُهُ ... فقامَ وفي أجفانِهِ سِنَةُ الغُمْضِ

يَطوفُ بكاساتِ العُقارِ كأنجمٍ ... فمن بين منقضٍّ علينا ومنفضّ

وقد نَشرتْ أيدي الجنوبِ مطارفًا ... على الجوِّ دُكْنًا والحواشي على الأرضِ

يطرِّزُها قوسُ السَّحابِ (٢) بأصفرٍ ... على أحمرٍ في أخضرٍ تحتَ مُبْيَضّ

كأذيالِ خودٍ أقبلتْ في غلائلٍ ... مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ

وللوأواء (٣) وأجاد :

٢٥ أ / سقيًا ليومٍ بدا قوسُ الغَمامِ بهِ ... والشمسُ طالعةٌ (٤) والبرقُ خلّاسُ

---

(١) وردت الأبيات في اليتيمة ١ : ٤٣ منسوبة لسيف الدولة .
(٢) اليتيمة : الغمام .
(٣) ديوان الوأواء : ١٣١ واليتيمة ١ : ٢٩١ .
(٤) الديوان : مسفرة .

كأنه قوسُ رامٍ والبروقُ لـــــهُ رَشْقُ السِّهامِ وعينُ الشمسِ بُرْجاسُ

وقال ابن بليطة الأندلسي* من قطعة :

ولاحَ في الجوِّ قوسُ الجوِّ مُكْتَسِيًا من كلِّ لونٍ بأذنابِ الطَّواويسِ

وقال السري الموصلي من قطعة :(١)

والجوُّ في ممسكٍ طرازُهُ قوسُ قزحْ

يبكي بلا حزنٍ كما يضحكُ من غيرِ فرحْ

وقال الصاحب بن عباد في الثلج وأجاد :(٢)

أَقبلَ الثلجُ فانبسطْ للسرورِ ولشربِ الصَّغيرِ بعدَ الكبيرِ(٣)

فكأنَّ السماءَ صاهرَتِ الأَرْ ضَ فصارَ النِّثارُ من كافورِ

---

(١) ديوان السري : ٧٤ .
(٢) ديوان الصاحب: ٢٢٩ واليتيمة ٣: ٢٦٥ ونهاية الأرب ١: ٨٧ .
(٣) ورد هذا البيت في الديوان ونهاية الأرب على هذه الصورة :
أقبلَ الثلجُ في غلائلِ نورٍ تتهادى بلؤلؤٍ منثورِ
وفي اليتيمة : أقبلَ الثلجُ فانبسطْ للسرورِ ولشربِ الكبيرِ بعدَ الصغيرِ

---

* هو الأسعد بن ابراهيم بن أسعد بن بلّيطة . قرطبي الأصل، تنقل في بلاد الأندلس واتصل بملوك الطوائف . وقد كان فارسا مجيدا بليغا بالقلم بلاغته بالسيف . (الذخيرة ١ / ٢: ٢٩٠ ومطمح الأنفس: ٨٣) .

ولأحمد بن علي العلوي فيه واستدعى صديقا:

هواكَ من الدنيا نصيبي وإنّني إليك لَمُشتاقٌ كَجفني إلى الغُمْضِ

فَزُرْني وبادِرْ يومَ ثلجٍ كأنّه شمائِمُ كافورٍ نُثِرْنَ على الأرضِ

وقال أبو الفتح البستي* وأجاد:

٢٥ ب / قد نظمْنا السرورَ في عقدِ أنسٍ وجعلْنا الزّمانَ للّهْوِ سِلْكَا

وشرِبْنا المُدامَ في يومِ ثلجٍ غَزِلَ الغيثُ فيهِ رشدًا ونُسْكَا

فكأنّ السحابَ ينحَلُّ كافورًا علينا ونحنُ نَفتُقُ مِسْكَا

وقال ظافر الحدّاد:

ويومٍ ضاحكٍ يبكي ضعيفِ مَعاقِدِ السِّلكِ

أَشوبُ ببَرْدِهِ بَرَدًا كمبسَمِ من حوى مُلْكي

كأن الريحَ تنثرُهُ على الأرضين في وَشْكِ

تُغربِلُ من خلالِ النّدِّ كافورًا على مِسْكِ

---

* هو أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي، وصفه الثعالبي بأنه "صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس"، وكان له حظ وافر في الأدب وسائر العلوم. توفي في ديار الترك سنة ٤٠٠. (اليتيمة ٤: ٣٠٢ وشذرات الذهب ٣: ١٥٨).

وقال كشاجم فيه من قصيدة :[١]

الثلجُ يسقطُ أم لجينٌ يُسْبَكُ ... أم ذا حصى الكافورِ ظلَّ يُفَرَّكُ

راحتْ به الأرضُ الفضاءُ كأنها ... من كلِّ ناحيةٍ بثغرٍ تَضْحَكُ

شابتْ ذوائبُها فبيَّنَ ضحكُها ... طرباً وعهدي بالمَشيبِ مُنَسَّكُ[٢]

ومن قطعة له أيضا :[٣]

وكأنما يَنْهَلُّ من سَبَلِ النَّدى ... أيدٍ نَثرنَ من الجُمانِ عقودَا

وقال أيضا فيه وفي السحاب :[٤]

غيثٌ أتانا مُؤْذِنٌ[٥] بِخَفْضِ ... مُتَّصِلُ النَّوْءِ[٦] حَثيثُ الرَكْضِ

كالجيشِ يتلو بعضُهُ[٧] بالبعضِ ... يضحك عن برقٍ خفيِّ النبضِ

---

(١) ديوان كشاجم، الورقة: ٨١ ونهاية الأرب ١: ٨٦.
(٢) الديوان والنهاية : ينمّسك.
(٣) ديوان كشاجم، الورقة : ٣٩.
(٤) ديوان كشاجم، الورقة : ٦٥.
(٥) الديوان: مؤذنا.
(٦) الديوان : الوبل.
(٧) الديوان : لبعض.

٢٦ أ /كالكَفِّ في انبساطِها والقبضِ دنا فخِلناهُ دُوَيْنَ[١] الأرضِ

إلْفًا إلى إلْفٍ بسِرٍّ يُفْضِي ثم هَوى كاللؤلؤِ المُرْفَضِّ

وقال ابن التمّار[٢] في البرق من قطعة :

فاشربْ على طيبِ الزمانِ فيومُنا يومُ التذاذٍ قد أتى بِرَذاذِ

وانظرْ إلى لُمَعِ البروقِ كأنها يومَ الضِّرابِ صفائحُ الفولاذِ

وقال ابن المعتز في البروق من قصيدة :

أَرِقْتُ لبرقٍ كثيرِ الوميضِ تَرامى غواربُهُ في الشُّهُبْ

كأنّ تألُّقَهُ في السماءِ سطورٌ كُتِبْنَ بماءِ الذَّهَبْ

وقال أيضا من قصيدة[٣] :

إذا تَعَرَّى البرقُ فيها خلتَهُ بطنَ شجاعٍ في كثيبٍ يضطربْ

وتارةً تبصرُهُ[٤] كأنّه أبلقُ مالَ جُلُّهُ حِمْيَرَ وثبْ

---

(١) الديوان : فويق .

(٢) اليتيمة ٢ : ٣٧١ .

(٣) ابن أبي عون : ٦١ ونهاية الأرب ١ : ٩٢ . وقد ورد البيت الأول فيهما على هذه الصورة :

تحسبُهُ فيها إذا ما انصدَعَتْ أحشاؤها عنهُ شجاعًا يَضطرِبْ

وورد البيت الثالث على هذه الصورة :

حتى إذا ما رفعَ اليومَ الضحى حسبتَهُ سلاسلا من الذَّهَبْ

(٤) تشبيهات ابن أبي عون : تحسبه .

وتـارةً تخالُـه إذا بـــدا سلاسِـلاً مصقولـةً من الذهبْ

ولأبي بكر الخالدي في الرعد والبرق والسحاب وأجاد:(١)

وسحابٍ يجرُّ في الأرضِ ذيلَـيْ مطرفٍ زرَّه على الأرضِ زرَّا

برقُـهُ لمحـةٌ ولكـنْ لـه رعـــدٌ بطيءٌ يكسو المَسامِعَ وَقْـرا(٢)

كخَـلِيٍّ منـافِـقٍ تهـــواهُ فهوَ يبكي جهرًا ويضحكُ سِرًّا

وقال ابن قلاقس في مثله، وان كانت التوطئة ليست جيدة:(٣)

٢٦ ب /كأنمـا الرعـدُ والسحابُ وقـد جَدَّ ذَهاباً(٤) والبرقُ إذ لاحَـا

ثلاثـةٌ من عدوٍّهِـمْ نفـــروا إليهـم قد غـدا وقـد راحَـا(٥)

فَسَـلَّ هذا سيفًا لـه وبكـى هذا وهذا مـن خـيفـةٍ صاحا

---

(١) اليتيمة ٢: ١٩٠، وقد ورد البيت الثالث على هذه الصورة:
كخلي منافـقٍ للذي يهـــواهُ يبكـي جهرًا ويضحك سِرًّا

(٢) الوقر: ثقل في الأذن أو ذهاب السمع كله.

(٣) ديوان ابن قلاقس: ٢٨.

(٤) الديوان: هبوبا.

(٥) الديوان: وقد غدا نحوهم وقد راحا.

وقال أبو عثمان الخالدي :[١]

كأن الرعودَ خلالَ البروقِ والريحُ تُكْثِرُ[٢] تحريضَها
زُنوجٌ إذا خَفقتْ بينها دَبادِبُها جَرَّدَتْ بيضَها

وقال أيضا في الطبل والسحاب والبرق من قطعة :[٣]

أما تَرى الطَّلَّ كيفَ يَدْمَعُ[٤] في عيونِ نَوْرٍ تدعو إلى الطَّرَبِ
في كلِّ عينٍ للطلِّ لؤلؤةٌ كدمعةٍ في جفونِ مُنتحِبِ
والجوُّ في حلّةٍ ممسّكةٍ قد طرَّزتْها[٥] البروقُ بالذهبِ

وقال السري من قطعة :[٦]

والجوُّ يَختالُ في حُجْبٍ ممسّكةٍ كأنما البرقُ فيها كفُّ ذي رُعُبِ[٧]

---

(١) اليتيمة ٢: ٢٠١ .
(٢) اليتيمة : يكثر .
(٣) اليتيمة ٢: ١٩٩ .
(٤) اليتيمة : يلمع .
(٥) اليتيمة : كتبتها .
(٦) ديوان السري : ٢٦ .
(٧) الديوان : قلب .

وللوزير المهلبي *(١) :

يومٌ كأن سماءَه ... شبهُ الحصانِ الأبرشِ

وكأن زَهرةَ أرضِه (٢) ... فُرِشَتْ بأحسنِ مفرشِ

فسماؤه دُكْنُ الخزوزِ ... وأرضُه خُضْرُ الوشي

وهو من قول ابن الرومي (٣) :

يومُنا للنّديم يومُ سرورٍ ... والتذاذٍ ونعمةٍ وابتهاجِ (٤)

ذو سماءٍ كأدكنِ الخزِّ غيمَتْ ... فوقَ أرضٍ كأخضرِ الديباجِ (٥)

وللناشئ الأصغر **:

خَليليَّ هَل للمُزْنِ مُقْلَةُ عاشقٍ ... أَم النارُ في أَحْشائِها وَهْيَ لا تدري

---

(١) اليتيمة ٢: ٢٣٨، والبيتان الاولان في نثار الازهار: ١٠٥.
(٢) اليتيمة: روضه.
(٣) ديوان ابن الرومي، الورقة: ١٠٦، والبيت الأول في اليتيمة ٢: ٢٣٨.
(٤) الديوان: يومها ... يوم نعيم ... وحبرة ...
(٥) الديوان: قد غيمت وأرض ...

---

* هو أبو محمد الحسن بن محمد الأزدي المهلبي وزير معز الدولة بن بويه. اشتهر بنبله وكرمه وحبه للأدب والأدباء. توفي سنة ٣٥٢ (اليتيمة ٢: ٢٢٤، وابن خلكان ١: ٣٩٢).

** هو أبو الحسين علي بن عبد الله بن وصيف. كان اماميًا استنفد عمره في مدح أهل البيت حتى عرف بهم. اتصل بكافور الاخشيدي وابن العميد. توفي سنة ٣٦٥. (معجم الادباء ١٣: ٢٨٠ واليتيمة ١: ٢٤٨).

أشارتْ إلى أرضِ العراقِ فأصبحتْ ... وكاللؤلؤِ المنثورِ أدْمُعُها تَجري

تَسَرْبَلُ وشيًا من خزوزٍ تطـــرَّزتْ ... مطارفُها طُرزًا من الوشيِ كالتبرِ

وقال يوسف بن هارون الرمادي الأندلسي* من قطعة :(١)

والغيثُ من ســـحابِـه ... طَـلٌّ ضعيـفٌ يـنزِلُ

كـــأنـــه بُـــرادَةٌ ... مـن فضـةٍ تُغَرْبَـلُ

وقال المملوك من مزدوجة في البرق:

والبرقُ مـذْ أَرْهَفَ من شَـفـارِهِ ... لاحتْ دماءُ المحلِ فـي غِـرارِهِ

كـأنه والنـورُ منه قد طفـــا ... نشوانُ رشَّ في حديقٍ قَرْقَفـــا(٢)

وتارةً يبدو كبندٍ مـــن ذهـــبْ ... يُخْفَـضُ طورًا ثم طورًا يَنْتَصِبْ

---

(١) تشبيهات ابن الكتاني : ٣٦ .
(٢) القرقف : الماء البارد .

---

* هو أبو عمر يوسف بن هارون الكندي الرمادي . شاعر قرطبي كثير الشعر من مدّاح المنصور بن أبي عامر . توفي سنة ٤٠٣ . (ابن خلكان ٦ : ٢٢٥ واليتيمة ٢ : ١٢ ومطمح الأنفس : ٦٩) .

وتـارةً تحسـبُهُ إذ يُعْـرَضُ كأرقـشٍ لسـانُهُ يُنَضْنِـضُ(١)

وربّمـا تـرى بـه تـداخـلاَ تخالُـهُ من ذهبٍ سلاسـلاَ

٢٧ ب /وتـارةً يخفقُ غـيرَ شـارقِ كأنـه خفقُ فـؤادِ العاشقِ

وتـارةً خفقًـا شديدَ القِصَـرِ لمحًا ضعيفًا كاختلاجِ البصرِ

---

(١) تضنض لسانه: حرّكه .

الفصل التاسع :

في تشبيه المجرة .

قال ابن المعتز[*] من قطعة وينسب الى الخباز البلدى[(١)] :

وكأن المجرّ[(٢)] جدولُ ماءٍ نَوَّرَ الأقحوانُ[(٣)] في جانبيهِ

وأخذه ابن حجاج[**] فقال من قطعة[(٤)] :

يا صاحبيَّ أستيقظا من رَقدةٍ تُزري على عقلِ اللبيبِ الأكيسِ

هذي المجرّةُ والنجومُ كأنها نهرٌ تدفّقَ في حديقةِ نرجسِ

---

(١) الوافي ٤: ٩٧ وديوان المعاني ١: ٣٣٩ ونهاية الأرب ١: ٦٥ دون نسبة.
(٢) ديوان المعاني: كأن المجرّة .
(٣) ديوان المعاني: نور الأقاح .
(٤) اليتيمة ٣: ٦٩ ونهاية الأرب ١: ٦٥، والبيت الثاني في الوافي ٤: ٩٧ .

---

* هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان . قال فيه الثعالبي: "ومن عجيب شأنه انه كان أميا، وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن او مثل سائر" . (اليتيمة ٢ : ٢٠٨ والوافي ٢: ٥٧) .

** هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج . اشتهر شعره بالخلاعة والسخف وكان الفضلاء يتفكهون به . وهو من كبار شعراء الشيعة . كانت وفاته سنة ٣٩١ . (ابن خلكان ١: ٤٢٦ واليتيمة ٣ : ٣١) .

وأخذه المهذّب بن الزبير* وزاد عليه شيئا من الصنعة فقال :(١)

وترى المجرةَ والنجومَ كأنها تسقي الرياضَ بجدولٍ ملآنِ

لو لم تكنْ(٢) نهرًا لما عامتْ بهِ أبدًا نجومُ الحوتِ والسّرطانِ

وقال ابن صرّبعر من قصيدة :(٣)

وعلى المجرةِ أنجمٌ نُظِمَتْ مثلَ الفَقارِ يلوحُ(٤) في الظّهرِ

هذي حبابٌ فوق صفحتِها طافٍ وهذا جدولٌ يجري

وقال ابن خفاجة :(٥)

/لَبِسَ المجرّ على السّوادِ(٦) فخلتُهُ مُتَرَهِّبًا قد شدّ من زنّارِ ٢٨ أ

وقال المملوك من قطعة وقد تقدمت :(٧)

والليلُ فرعٌ بالكواكبِ شائبٌ فيه مجرّتُهُ كمشلِ المفرقِ

---

(١) الخريدة (مصر) ١: ٢٠٩ ونهاية الأرب ١: ٦٦ .
(٢) الخريدة ونهاية الارب : يكن .
(٣) ديوان صردر : ١٧٨ .
(٤) الديوان : نسقن .
(٥) ديوان ابن خفاجة : ٣٣ .
(٦) في الاصل : السواة ، والتصحيح من الديوان وهو أقرب للمعنى .
(٧) انظر الصفحة : ١٤٤ .

* هو أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير ، كان كاتبا جيد العبارة مليح الالفاظ ، وقد اختص بالصالح بن رزيك ونسب اليه اكثر ما في ديوان الصالح من شعر . توفي سنة ٥٢١ . (الخريدة (مصر) ١: ٢٠٤ والفوات ١: ٢٤٤) .

الفصل العاشر:

في تشبيه الصبح

قال أبو بكر الخالدي من قصيدة ووصف ديكا:[١]

مُغرِّدٌ[٢] الصبحِ هيّجَ الطربا ... لما قضى الليلُ نحبَهُ انتحبَا

مغرّدٌ تابعَ الصّياحَ[٣] فما ... يُدري[٤] رضًى كان ذاك أم غضبَا

ما تُنكِرُ الطيرُ أنه ملكٌ ... لها فبالتاجِ راحَ مُعْتَصِبَا

طوى الظلامُ البنودَ منصرفًا ... لمّا[٥] رأى الصبحَ ينشُرُ العَذَبَا[٦]

والليلُ من فتكةِ الصياحِ[٧] بهِ ... كراهبٍ شقَّ جيبَه طَرَبَا

وشاركه السري الموصلي فقال من قطعة:[٨]

كراهبٍ حَنَّ للهوى طربًا ... فشقَّ جلبابَهُ منَ الطَّرَبِ

---

(١) اليتيمة ٢: ١٨٥؛ وفي نثار الأزهار: ١٠٠ منسوبة لكشاجم.
(٢) اليتيمة: مطرّب.
(٣) اليتيمة: الصباح.
(٤) اليتيمة: ندري.
(٥) اليتيمة: حين.
(٦) العذب: الأطراف من كل شيء.
(٧) اليتيمة: الصباح.
(٨) ديوان السري: ٦٣ ونثار الأزهار: ٧٠ واليتيمة ٢: ١٨٥.

وقال أبـو بكـر أيضا من قصيدة :[1]

ما عُذرُنا في حبسِنا الأكوابَـا سقطَ النَّدى فصفا الهواءُ[2] وطابَا[3]

وكأنما الصبحُ المنيرُ وقد بـدا بازٍ أطارَ من الظـلامِ غُرابَـا

٢٨ ب وقـال ظافـر الحـداد :[4]

وصبيحةٍ باكرتُها في فتيـةٍ أَضحَوْا[5] لكلِّ نفيسـةٍ كالأنفـسِ

واللّيلُ[6] قد ولّـى بعبسةِ راحلٍ والصبحُ قد وافى ببشـرِ مُعَرِّسِ[7]

والفجـرُ[8] قد أخفى النجومَ كأنـه سيلٌ يفيضُ[9] على حديقةِ نرجـسِ

وقال محمد بن عطية بن حيان القيرواني الكاتـب :*[10]

فكأنما الصبحُ المطلُّ على الدجى ونجومُـه المتأخّـراتُ تَقوّضَـا

نهرٌ تعرَّضَ في السماءِ وحولـهُ أشجارُ وردٍ قد تفتَّـحَ أبيضَـا

---

(١) اليتيمة ٢: ١٩٣، والبيت الاول في نثار الأزهار: ٩٩ دون نسبة والبيت الثاني في نهاية الارب ١: ١٤٣ منسوبا للخالديين.
(٢) اليتيمة: وصفا.
(٣) نثار الأزهار: النسيم.
(٤) الخريدة (مصر) ٢: ٧.
(٥) الخريدة: أضحت.
(٦) الخريدة: والبدر.
(٧) الخريدة: محبس.
(٨) الخريدة: والنور.
(٩) الخريدة: سيل يسيل.
(١٠) الوافي ٤: ٩٦؛ ونثار الازهار: ٧٠ ولم يسمّه.

* هو أحد شعراء الانموذج، وصفه ابن رشيق بأن المعاني تنساغ له، وكان أحد كتاب الدولة الصنهاجية. (الوافي ٤: ٩٥).

وقال ابن وكيع من قصيدة :

حتى إذا الليلُ بدا فيهِ منَ الصبحِ وَخَطْ
وخلتُ ذا في جسمِ ذا حين تَفَرّى[1] وانكشَطْ
غلالةً فضيةً عن جسمِ زنجيٍ تُعَطْ[2]

وأخذه أبو الفتوح بن قلاقس فقال من قصيدة :

حتى تبدّى الصبحُ من جنباتِهِ فكأنّهُ الزنجيُّ شُقّ قباؤُهُ

وقال ابن المعتز وهو أحسن ما قيل في الفجر المعرض[3] :

والليلُ قد رقّ وأصفى[4] نجمُهُ واستوفز[5] الصبحُ ولما ينتصبْ[6]
مُعترضٍ[7] في فجرهِ في ليلةٍ كفرسٍ دهماءَ بيضاءَ اللّبَبْ

---

(١) تفرّى : تشقق .
(٢) عطّ الثوب : شقّه .
(٣) ديوان المعاني ١ : ٣٥٦ ونثار الأزهار : ٦٩ .
(٤) ديوان المعاني : وأصفى .
(٥) استوفز : قعد غير مطمئن كأنه يتهيأ للوثوب .
(٦) ديوان المعاني : ينتقب .
(٧) ديوان المعاني : معترضا بفجره .

٢٩ أ / ولـه أيضا مـن قطعـة[١]:

والصبـحُ يتلو المشتري فكأنـه عريانُ يَمْشي في الدّجى بسِـراجِ

وقال القاضي التنوخي فيه من قطعـة[٢]:

كأنَّ عيونَ الساهراتِ[٣] لطولِهـا إذا شَخَصَتْ في الأنجمِ الزُّهرِ أنجمُ

كأنّ سوادَ الليلِ والفجرُ ضاحِكٌ يلوحُ ويَخفَى أسـودٌ يَتَبَسَّـمُ

وأخذه ابن وكيـع فقـال:

والفجرُ قد خالطَ بالنورِ الغسقْ فجاءَ في هيئةِ طِرْفٍ ذي بلـقْ

تَبَسُّمَ الزنجيِ عن ثغرٍ يَقَقْ[٤]

---

(١) الذخيرة ١/ ٢: ٤٨ وابن أبي عون: ١٥ وديوان المعاني ١: ٣٥٨، ونثار الازهار: ٧٠.

(٢) اليتيمة ٢: ٣٣٨، والبيت الثاني في نثار الأزهار: ٧٠ ومعاهد التنصيص ١: ١٣٧.

(٣) اليتيمة: الساهرين.

(٤) يقق: شديد البياض.

البـــــاب الثانـــي

فيالتشـبيه الـواقع في صفـات الميـاه والأنهـار والغـدران

البـــاب الثانـــي

في التشبيه الواقع في صفات المياه والأنهار والغدران، وفيه خمسة فصول ·

الفصـــل الأول:

فيما قيل في الأنهار عند تجعّدها بمرّ الريح عليها ·

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول الأمير تميم بن المعزّ:[1]

٢٩ ب / يومٌ لنا بالنَّيلِ مُختصرُ ولكلِّ وقتٍ مَسَرَّةٍ قِصَرُ

والسُّفْنُ تَصعدُ[2] كالخيولِ بنا فيهِ[3] وجيشُ الماءِ مُنحَدِرُ[4]

وكأنّما[5] أمواجُه عُكَنٌ وكأنّما داراتُه سُرَرُ

وقال ابن وكيع في تشبيهه بالعكن:

خُذْها بكَفَّيْ فاترِ الجفونِ على خليجٍ أملسِ المتونِ

---

(١) ديوان تميم: ٢٤١ ونهاية الأرب ١: ٢٨١ ·
(٢) نهاية الأرب: تجرى ·
(٣) نهاية الأرب: صعدا ·
(٤) الديوان: في موجه والماء ينحدر ·
(٥) الديوان ونهاية الأرب: فكأنما ·

أسواجُهُ كمُكَنِ البطـــونِ ذي زردٍ كالـزَّردِ المَوْضـــونِ[١]

كَسَلْخِ أَيـمٍ[٢] أوكسلخِ نونِ

ولـه أيضـًا :

سَقانِيَ كَأْسَ الرَّاحِ شاطئُ جَدولٍ تداريجُهُ يَحْكِينَ بطناً مُعَكَّسَا

إذا صافَحتْهُ راحةُ الرِّيحِ خلتَها بتكسيرِها إيّاهُ ثوبًا مُخَبَّـنَـا

وإنما أخذ الأمير تميم أبياته من قول الصّنوبرى:

طَربتُ إلى شاطي الفُراتِ عشـيَّةً بكلِّ فتًى كالسَّيفِ أروعَ صِنديـدِ

وقد عَبثَتْ فيه الصَّبا فتخالُـهُ طريقَ لجينٍ ذا رُبى وأخاديدِ

تروقُكَ دارتٌ عليهِ كأنَّهـا خواتمُ حُسنٍ في خدودٍ مهًى غيـدِ

---

(١) الموضون : المنضّد .

(٢) الأيـم : الحيّة الذكر .